لينُور دي رُوكوندُو

مكتبة بغداد

الحجر الحيّ

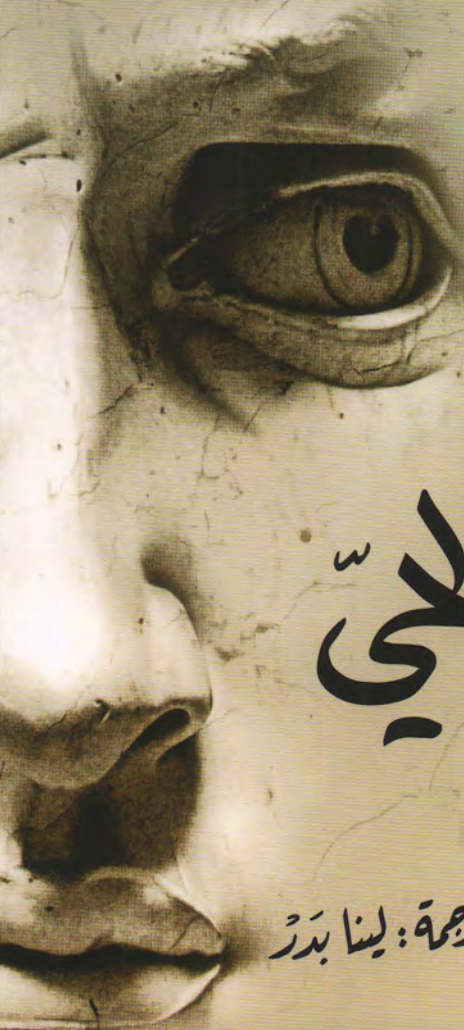

رِوَاية

ترجمة: لينا بدر

مسكيلياني

ليّنور دي روكوندو

الحَجَرُ الحَيّ

رواية

ترجمة: لينا بدر

مراجعة: رمزي بن رحومة

مسكيليانى للنشر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكاتب: ليّنور دي روكوندو
عنوان الكتاب: الحَجَرُ الحَيّ
ترجمة: لينا بدر
مراجعة: رمزي بن رحومة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 23305015(216+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

ر.د.م.ك: 978-9938-833-79-9
عنوان الكتاب الأصليّ: Pietra Viva
© Sabine-Wespieser 2013

الطبعة الأولى: دار مسكيلياني، تونس، 2017.

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أندريا

كان الضوء يدخل عبر النوافذ الغوطية، ومايكل أنجلو يلهو بذرّات الغبار المتطايرة داخل دفقة نور اقتحمت الغرفة لتحطّ على المنضدة الرخامية، فتتنقّل يداه الرشيقتان من الظلّ إلى النور دون ملل. إنّه الانتظار.

جاء الراهب غويدو عندَ الضحى وأخبره أنّ أحد إخوته الرهبان قد قضى، وأنّ رئيس الدّير يسمح له بفتْحه. لم يكن غويدو يستخدم كلمة «تشريح» البتّة، إجلالاً للمتوفّى، كما كان يقول، ومن أجل الأحياء أيضاً، حتّى تُتاح لهم دراسته بورع.

كان مايكل أنجلو يواصل مداعبته للضّوء حين سمع خطوات تقترب. لم يرفع نظره ناحية الباب، فهو باستطاعته أن يميّز بوضوح إيقاع حركات الإخوة الرهبان من بدايتها، وقد كانت أقرب ما يكون إلى الرقص.

سوف يصل غويدو أوّلاً، وسيحدّد، بعد سلام موجز، جنس المتوفّى وسنّه. ثمّ يدخل الأخ أندريا وراهب آخر بدورهما حاملين الجثمان المغطّى بكفن أبيض. فيضعانه برفق فوق المنضدة الرخامية، ويتلو غويدو صلاة قصيرة. ليحلّ الهدوء بعد آخر «آمين» تُقال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لطالما رغب أندريا في المكوث بُرهةً كي يرى ما الذي يتبقّى من الجسد بعد أن ترحل عنه الروح. لكن غويدو كان يطلق أمره الحازم: «إخوتي، لنترك المعلّم يقوم بعمله. وهيّا لنلاقِ نحن معلّمنا!» سيجد مايكل أنجلو نفسه وحيداً من جديد، في هذه المواجهة التي لم تعد تهزّه البتّة.

مرّة واحدة فحسب رفض أن يفتحَ الجثمان. كان أندريا يقف وراء غويدو، حاملاً تحت غطاء أبيض هيكلاً ضئيلاً جدّاً، يضمّه بيُسر إلى لباسه الكهنوتي كمن يحمل شيئا أخفّ من الهواء. حينها قال مايكل أنجلو ببساطة إنّه يستحيل عليه التّشريح، لخلوّ الكفن من الجسد. فأجابه أندريا:

- أنا أفهمك يا معلّم، إنّ جزءًا كبيرًا من الجسد قد رافق روح الطفل، وهي تتملّص منه وتحلّق نحو السّماء..».

تلك كانت أول مرة يسمع فيها مايكل أنجلو صوت أندريا. لا يعرف إن كانا قد تحدّثا بعد ذلك أم لا. لم يكن يأبه للاستماع إليه كثيرا، كلّ ما كان يطلبه هو أن يُمعن فيه النظر.

فُتح الباب. دخلوا. أغمض مايكل عينيه. سمع البيانات الخاصّة بالجثمان. لكنّ الخطوات ما إن تخطّت العتبة حتّى توقّفت، ولم يكسر الصّمتَ صوت.

فتح عينيه. كان هناك غويدو، وخلفه راهبان يحملان الجسد. لم يرَ أندريا. انقبض قلبه وعبر ذهنه خاطرٌ.

«حسناً أيّها الأخ غويدو، ما الذي يجري؟»

- لا أجد الكلمات أيّها المعلّم. احكم بنفسك..».

وضع الراهبان الجثمان فوق الرخام. الجسد تحت الملاءة ما يزال مرناً. لا شكّ أنّه لم يمضِ على موته وقت طويل.

«الأخ أندريا ليس معكم هذا الصباح؟»

تحاشت نظرة غويدو السؤال وشرع يصلّي.

ازداد انقباض قلب مايكل. ولكنّه عاود طرد الخاطر الذي كان ينخر قلبَه.

انتهت الصّلاة. لم يستطع الإخوة العودة على أعقابهم، ولا الابتعاد. تردّد بخصوص انتظار رحيلهم ليبدأ التشريح.

كان وزن قماش الكتّان هو الكلمة الفصل بالنسبة إليه، تهدّل طرف القماش بغتة فانكشفت ساق رجل. نظر إليها بإمعان. الشعيْرات طويلة وشقراء. باطن الرّكبة مغطى بزغب خفيف. الفخذ صلب، لا يحتاج شقّه كي يشعر بقوة العضلات المرتبطة بالرّضفة. القدم دقيقة والأظافر نظيفة ومقلّمة بعناية. الرّجل فتيّ، وربّما لم يتجاوز العشرين.

نسي حضور الرهبان كليّاً. لمس ربلة الساق. كما توقّع، الجلد طريّ، يكاد يكون شمعياً.

أخذ قلبه يخفق بشدّة.

برفقٍ، كشف عن الجسد كليّاً. كان ذَكَرُه مغطى بقطعة قماش بيضاء، لم ينظر إلى الوجه بعد. الفكرة التي حاولت مراراً أن تنفذ إلى روْعه، كانت قد اجتاحت ذهنه لِلحظتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصدر أمرد. الحلمتان مرجانيتان، تعلوان فوق تلّتيهما اللحميّتين الصغيرتين، وتطفوان فوق البشرة الناصعة، لا تشوبها شائبة. تناسق الجسد كامل، مثلما تخيّله.

أندريا، هل هذا أنت الراقد تحت ناظريّ؟

أنّى له أن يقاوم جموحَ الرغبة في النظر إلى الذقن والثغر والأنف، والجفنين المغمضتين؟.. المغمضتين إلى الأبد.

انطلقت من صدره حشرجة، تصاعدت نحو القبّة.

اقتلع الصوت الرهبان من جمودهم فمدّ غويدو إلى مايكل إنجيلاً صغيراً.

«ترك لك هذا يا معلّم».

حلّ بالنحّات البُكم. كان يودّ أن يسأل عمّا حدث، أو ببساطة، لمَ. لكنّه لم يستطع. لم يصدر عنه سوى حشرجته تلك وهي تضطرب وتخفق تحت القبّة.

ابتعد الرهبان، أمّا هو فوضع مشرطه وإنجيله الصغير داخل خُرجه وقد لفّه صمتُ الحجر..

لم يسبق له أن لامس وجه أندريا، فكيف بوسعه الآن أن يشقّ عن صدره؟

أندريا، أنت الجمال الصرف، وكمال الملامح، وتناسق العضلات والعظام.

عندما رآه أوّل مرّة يحمل جثّة، ظنّ أنّه يرى صورة عن المسيح في شبابه (لا يمكن لذلك الجمال المشرق، وتلك القوّة التي تجعله يرفع

الموت دون تردّد إلاّ أن يجعلا منه ابن الله) ونظرته أيضاً، كانت زرقاء بلا وجل، مباشِرة، مثل صفعة الدينونة الأخيرة.

لمّا جاء مايكل أنجلو ليقوم بالتشريح في مشرحة الدير لم يكن مدفوعا سوى بمتعة تأمّل أندريا.

لم يسبق أن جمعهما الحديث إلاّ قليلا، ومع ذلك تعرّف مايكل جسد أندريا العاري من الوهلة الأولى، الجسد الفاقد لنضارته. نظر إليه مرّة أخيرة، وتركه لذرّات الغبار السّابحة في دفقة الضوء التي حطّت برفق على صدره.

ردّد بصوت خفيض:

«أندريا، أنت الجمال الصّرف، وكمال الملامح، وتناسق العضلات والعظام».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرّحلة

اجتاح مايكل أنجلو الاضطرب ومما عاد يريد البقاء لحظة أخرى في روما. سوف يرحل وحيداً ويوافيه مساعده لاحقاً في كارّار. الطلب الذي خصّه به البابا قبل بضعة أسابيع منحه مبرّراً مناسباً للهروب. هناك، سيجدُ متّسعا للنّسيان. كان شبه واثق من ذلك.

وضع في حقيبته الجلديّة بعض الثياب الثقيلة (قد يكون الربيع رطباً وبارداً في الجبال) وزوجاً من الأحذية المصنوعة من جلد الكلاب، وأزاميل الرخام المفضّلة عنده، وكتاب بترارك الصّغير -أهداه إليه لورنزو دي ميديشي وليس يفارقه البتّة- وكُنّشًا صغيراً لرسم مخططاته التمهيدية، والإنجيل الصغير لأندريا وما كان قد فتحه بعد.

هكذا أصبح مستعدّا للرّحلة.

دامت رحلته إلى كارّار عدّة أيّام. في البداية ركب السفينة، ثمّ عبر الجبال على الخيل. وعندما وصل إلى أقرب ميناء من مقالع الحجارة لم تعد تفصله عن المدينة إلاّ مسيرة يوم طويل وشاقّ.

في المساء، وبعد أن رست السفينة، أجّر غرفة في نزل صغير يطلّ على أرصفة الميناء مباشرة. جلس فوق سريره مُصغيًا إلى دحرجة

الأمواج وهي تبتعد شيئاً فشيئاً. كان قد طلب عشاءه قبل بضع لحظات فجاءته به صاحبة النزل إلى الغرفة. لم يكن يرغب في المكوث مع الآخرين في القاعة الكبرى. كان يؤثر البقاء وحيداً.

أثناء تناوله السّمك، فكّر في الأيّام الأخيرة. ساعدته جلسات التأمّل الطويل عند شاطئ البحر على إفراغ ذهنه حتّى كاد ينسى أندريا. حينها، وقد صار قريباً من الجبال، ازداد يقينه من أنّه سوف يستسلم إلى العمل والنّقاشات مع الحجّارين للعثور على الرخام المثاليّ المطلوب، ومن أنّ هذا البحث الحماسيّ سوف يهدّئ روعه.

تذكّر آخر زيارة له إلى كارّار، وكيف عثر على قالب الحجر الصالح لنحت تمثال «الشفقة» في روما. كان قد أدرك بغريزته وهو يتفحّص عددًا كبيرًا من الحجارة أنّ ذاك الحجر هو الأنسب. لذلك دفع فيه ثمنًا باهظًا ولم يتذمّر من جشع الحجّارين المتزايد كلّما تعلّق الأمر ببيع حجارة النّحت، لم يندم قطُّ على ذلك، فلقد عزّز هذا التمثال شهرته وما وجوده اليوم هنا إلاّ بفضله. هو ذا يعود إلى كارّار من أجل اقتناء الرّخام اللاّزم لتشييد القبر، وفي جيبه ألف دوقيّة تشهد لبابا روما بالكرم وتنفي عنه رذيلة البخل.

في دفتره الصّغير، رسم مايكل أنجلو عدّة نماذج. إذ أنّ جول الثاني كان قد حضّه على إطلاق العنان لمخيّلته العبقريّة حتّى أنّه راح يبتسم وهو يعيد التفكير في ذلك. كلمة «عبقرية» كلمة مختزلة، مادحة ولكنّها لا تُجدي نفعاً. غير أنّها حين تصدر من فم رجل ذي نفوذ كبير، تصبح دليل ثقة مطلقة، ولا يسعك إلاّ الانحناء أمامها. ركع النحّات، وقبّل خاتم الحبر البابويّ الأعظم. شكره وهو يقول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

له إنّه سيعمل جاهداً على أن يكون في مستوى تطلعاتها المشتركة.

لم يكن يشكّ في عبقريّة مخيّلته، فهي لا تنفكّ تفيض في كلّ ثانية. لكنّ المشكلة متّصلة بالرخام، هل سيعثر على قوالب حجريّة ترضي حاجته؟

كان نافد الصّبر، حتّى ليُخيّل لمن يراه وهو يتقدّم باتّجاه الجبل أنّه يريد الانقضاض عليه. في لحظات غبطته تلك، استطاع ذهنه أن يُقصي كلّ ما هو دخيل عن عمله، حتّى جسد أندريا الفاقد للحياة.

جلس مرتاحاً على كرسيّ بالقرب من النافذة، وصوت رجع الموج يجتاح الفضاء مجدّداً. شرب جرعة من الخمر وأخذ الكتاب الصغير الذي أهداه إيّاه لورنزو. وقد ترك الصفحات تنفتح كما اتّفقَ حتّى طفت أمام ناظريه عبارة فوق كلّ العبارات:

«يُثني الموت على الحياة، كما يقرّظ الليل النهار».

هذا تماماً ما كان يشعر به، منذ الأزل. إذا كان موت أندريا قد عجّل بوصوله إلى الجبال، فما ذلك إلاّ لاستخراج النّور من الظلمة.

قلّب الكلمات في فمه. وراح يتلفّظ بها دون أن يصدر عنه أيّ صوت ويرسم حوافّها بشفاهه المبتسمة باستمرار، ثم ارتشف النبيذ الأحمر المقطوف من كروم المنطقة، نبيذ عسوف وخشن.

غداً، سوف أكون بالقرب من مكان العمل.

شعر بأن الغرفة باردة فنهض يتمشّى لينشّط حركة الدّم في جسمه طلبًا للدّفء، كان تعب السّفر قد دبّ فيه فجأة وبشكل كامل. وقبل أن يخلد إلى النوم، مزّق قطعة ورق صغيرة وأشار بها إلى صفحة الكتاب.

لم يكلّف نفسه عناء خلع ملابسه. اندسّ في الحال تحت كوم الأغطية فلم يظهر منه سوى جبهته وعينيه المغمضتين. وما كاد يستطيب لذّة الدّفء وهي تسري في خلاياه حتّى أخذه سحر الحلم سنوات إلى الوراء، أثناء عشاء عند لورنزو. والجميع يجلس إلى مائدة الطعام مساءً.

بالطبع هناك المضيّف، وكذلك أبناؤه، ورسامون، وموسيقيون، ومفكّرون. كلّ أولئك الذين يرى فيهم لورنزو النخبة الثقافية لمدينة فلورنسا. كان مايكل أنجلو في السابعة عشرة من عمره بالضبط. صّامتًا جُلّ الوقت، أميلَ إلى الإصغاء والنّهل من معارف الآخرين.

بيكو دي لاميراندا شاب وسيم، أنيق، ويتحدث عشرين لغة. في ذلك المساء، طفق يتحدّث بلهجة لم يكن أحد يفهمها، لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يفرط في الشراب. فردّ عليه لورنزو بلغة غير مفهومة هو أيضاً. وهكذا دارات المحادثات بين المدعوّين، دون أن يفهم أيّ شيء منها.

لم يكن مايكل يرى فيها شيئاً غير طبيعي فتابع تذوّق الأطباق المتوافدة تباعا. لحوم الطرائد المطبوخة في أوان من خزف، وطيور ودواجن طيّبة، فضلًا عن أهرامات من الخضار المزيّنة بالأزهار، يعرضها الخدم قبل تقديمها، وفجأة رأى أندريا واقفاً أمامهم. ورأى في طبقه فخذاً مشويّةً. حيّاه بانحناءة خفيفة وقال: «جوسيبه، خمسة وعشرون عاماً».

لم يبدُ على جليسيْ المائدة أيّة دهشة أو مفاجأة. استمرت الأحاديث باللغات المجهولة.

وانتفض مايكل أنجلو من نومه مجفلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوصول

لم يعد النحّات إلى النّوم بعد حلمه الغريب إلاّ عند الفجر. ظلّ طول الليل يصغي إلى الأمواج، غير قادر على الاسترخاء والاستسلام للتّعب وقد غمره. وفي الصباح الباكر، حين استسلم أخيراً إلى شبه إغفاءة، أيقظه صياح الدّيك من سباته. ترك نفسه لهدهدة اللقاء غير المألوف ما بين الطائر والبحر وتخيّله ينزلق ثمّ يغوص في الزّبد.

بعد قليل، نهض. تذكّر أنّ أمامه طريقا طويلة لا بدّ من قطعها بهمّة كي يصل إلى كارّار قبل حلول الليل، ولكنّه سرعان ما تذكّر أيضًا وعد صاحب النزل بأن يوفّر له حصانا قويّا فاطمأنّ.

رتّب كتاب بترارك داخل خُرجه، ثم أعاد إخراجه فوراً ليطبع عليه قبلة ويقرأ تلك العبارة. لم ينسها، لبث يرددها وهو ينزل السّلالم المؤدّية إلى الصالة الكبرى. الحياة، الموت، النهار، الليل. كان يمكن أن يضيف إليها: غبار الرّخام، وظلال الثنايا. الحجر الأملس والنّور المنعكس منه.

«غداً، سوف ألتقي بالحجّارين».

قطع صاحب النزل حبل أفكاره قائلاً: «هل أمضيت ليلة هانئة يا معلّم؟»

كيف عرف هذا الرّجل صاحب الوجه المكفهرّ من يكون؟ ما أشدّ ضيقَه بالثرثرات، هو قلّما يهتمّ بشؤون الآخرين. لم يكن يطرح الأسئلة البتّة، ليس بسبب قلّة فضوله، إنّما بدافع خوف غامض من اكتشاف ما قد يصل إليه فيبلبله. نظر إلى صاحب النزل بفتور وأجاب: «فندقك ممتاز. سوف أنزل فيه عند عودتي».

- أنت ذاهب إلى كارّار، أليس كذلك؟

تهرّب النحّات من الإجابة عن سؤال صاحب النزل المتملّق وقال بنبرة جافّة: «هيّء حصاني من فضلك!»

انطلقت رحلته على الحصان عبر طرقات متعرّجة. كانت المناظر تسري في أعماق روحه تاركة علاماتها الخاطفة. فيحتفظ ببعضها وينسى البعض الآخر، خليط انطباعات من الألوان سوف يستخدمها لاحقًا. لم يكن بوسعه أن يعرف أيّاً منها سيضمحلّ وأيّها سينبعث في إبداعه. لم يشغل باله كثيرًا بمثل تلك الأفكار. لذلك ترك عينيه مفتوحتين أمام الريح والتلال والقرى الصغيرة المبنيّة من القرميد والرخام، سائراً تحت ظلال أشجار الكستناء.

عند عبوره النهر أدرك أنه لم يعد بعيداً. كان الحصان قويّاً فعلاً كما وعده صاحب النزل فلم يتوقّفا حين عبر وإياه من أمام بوّابة المدينة وجرس الكنيسة يقرع إيذاناً ببدء الصلاة.

توجّه مباشرة إلى الساحة الكبيرة، حيث أقام ذات يوم. كان يفضّل الحصول على الغرفة نفسها. طرق الباب ففتحت له ماريا:

- لقد وصلت باكراً يا معلّم! لم نكن نتوقّع وصولك قبل عشرة أيّام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أعلم يا ماريا، لكنّ أحداثاً في روما دفعت بي إلى المجيء في وقت أبكر.

- أيّة أحداث؟

فضول الآخرين مرض بالتأكيد. لاحظت ماريا ما طرأ على وجهه من عبوس، فأردفت بنبرة اعتذار: «اغفر لي عدم تحفّظي. سوف أعدّ لك غرفتك».

عاد إلى الشّارع ينتظر. شاهد رجلاً يحيط بذراعيه عنق حصانه فعرفه فوراً، إنّه كالڤالينو.

ترعرع كالڤالينو في كازّار، وكانت ميزته أنّه يظنّ نفسه حصاناً. ويعتقد يقينًا أن أبناء جنسه منحدرون من حيوانات مختلفة الأنواع.

اقترب منه مايكل وسأله بنبرة متودّدة: «كالڤالينو! كيف حالك؟»

- حصانك جميل، لكنّك جعلته يعدو كثيراً. انظر إليه كيف يتعرّق. إنّه مقطوع الأنفاس! كان عليك أن تكون أكثر عطفاً عليه!

- هذا صحيح، كنت أستعجل الوصول.

- سأحاول أن أريحه بالحديث عن براري الجبال الرائعة حيث العشب طريّ، وعن فرسي البيضاء التي أذهب لأراها كلّ يوم. إنّها الأجمل. ما تزال تنظر إليّ بلا مبالاة. لكنّني لا أيأس. أغنّي في أذنها قصائد الحبّ التي علّمتني إيّاها أمّي.

- وأمّك، كيف حالها؟

- آه، أنت تعلم! إنّها فرس عجوز محطّمة كلّياً. لم تعد تعدو،

مفاصلها تؤلمها. وأنت؟ تبدو على العكس، في صحّة جيّدة. كم عمرك الآن؟

- ثلاثون عاماً، في الواقع، لست في حال سيّئة.

- أنت محظوظ، عموماً الكلاب من جنسك لا يتحسّنون مع التقدّم في السنّ. دعني آخذ حصانك إلى الإصطبل من فضلك.

- لك ذلك! أنا سعيد برؤيتك مجدداً يا كاڤالينو...

ابتعد الرجل والحصان ومايكل أنجلو يبتسم. شاعريّة كارّار كلّها هاهنا. سيتسنَّى له الإقامة في غرفته، والإشراف على أعماله لأشهر عديدة ونسيان روما. لكن، قبل كلّ هذا، عليه أن يكتب إلى غويدو. عليه أن يستهلّ إقامته هنا بطرح سؤال بسيط.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كارّار في 2 نيسان 1505

أخي غويدو،

كيف حالك؟ وكيف حال بقية الرهبان؟
ألم يغرقك موت الأخ أندريا في حزن عميق؟

استغرقت رحلتي إلى كارّار ستة أيّام تقريباً، ولم أكفّ حقيقة عن التفكير بكم جميعاً. فور استقراري في القاعة التي ستكون غرفتي منذ الآن، جلست أمام طاولتي أكتب إليك.

بدايةً، كي أعتذر لك عن رحيلي دون كلمة وداع. لقد وضّبت مشرطي كاللصّ، وألقيت نظرة أخيرة على جثمان الأخ أندريا، ونور المشرحة يغلّفه، ثم رحلت دون أن أتمكّن من التصرّف بشكل غير هذا. ربّما صمتك غير المألوف لدى وصولك هو ما دفعني إلى عدم البحث عنك، فاخترت أن أتركك وشأنك.

ما إن وصلت إلى منزلي، أعطيت بعض التعليمات إلى مساعدي، وذهبت إلى الميناء. إنجيلي الصغير ما يزال في جعبتي، مغلقاً على حاله، لم ألمسه إلا بأطراف أصابعي.

لكنّني أريد الوصول إلى السؤال الحقيقي في رسالتي: لماذا؟ ما الذي جرى؟ ما الذي حدث؟

المخلص لك دائماً

مايكل أنجلو بوناروتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

توبولينو

لم يختم مايكل رسالته. هي رسالة شخصيّة جدّاً لم تتضمّن غير مشاعره الخاصّة. كان يرغب في معرفة أخبار الدّير فحسب، وعلى الأخصّ كيف مات أندريا. طواها ووضعها داخل دفتره الصغير مُضمرًا في نفسه اتّخاذ قرار إرسالها أو العدول عنه عندما يحين الموعد القادم لرحيل البريد إلى روما.

في اليوم التالي لوصوله، ذهب لملاقاة توبولينو، وكان اسمه كناية عن الفأر الصغير نظرًا لخفّته عند التسلّل إلى داخل فجوات المقلع حين توشك كتل الحجارة على السّقوط ويكون من الواجب التأكّد من استحالة حدوث سقوط عشوائيّ لكتل أخرى قد تصيب الرجال العاملين هناك. كان توبولينو رجلاً يحترمه الجميع، وإن استغرق كلفالينو وقتاً طويلاً قبل مناداته بلقبه الشهير لاقتناعه بأنّه سليل نوع نادر من العنادل. لا أحد كان يناديه باسمه الحقيقي «دومينيكو». وقد سبق أن قدّم إلى مايكل مساعدة عظيمة أيام كان يبحث عن قالب رخام لتمثال الشفقة. ارتبطا منذ ذلك اللّقاء الأوّل بصداقة متينة واستطاع النحّات أن يشقّ لنفسه طريقاً في دائرة الحجّارين الضيّقة جدّاً بفضل توبولينو. التقيا على درب المقلع، وشدّا على أيدي بعضهما بحرارة. توبولينو لم يتغيّر: قامة قصيرة وكتلة من العضلات

القويّة، مع عصبيّة ملحوظة لا تختفي إلاّ حين يشرع في الكلام المختلط أغلب الوقت بضحكات تزيد بريق عينيه الفاتحتين إشعاعًا. أمّا إذا مشى فإنّه يتمايل كالمتأرجح من ساق إلى أخرى.

- يا معلّم، أنت هنا؟

- نعم، أنا هنا. كما أنّني لا أدعى «معلّم»، أنت تعلم جيداً أنني لست أفضل منك!

ابتسم توبولينو.

- أي رياح حملتك إلى هنا هذه المرّة؟

- البابا، تصوّر!

- البابا! البابا الحقيقي؟ تقصد جول الثاني؟

- ليس هناك غيره، أليس كذلك؟ يريدني أن أتولّى تشييد قبره!

انفجر توبولينو ضاحكاً وهو يردّد: «لم يُنتخب إلاّ منذ وقت قصير، وها هو يُدفن!»

ثم أردف مستعيدًا جديّته: «لكنّك رجل مهمّ الآن. لماذا أتيت بنفسك للقائي، أنا الرّجل المسكين؟ لماذا لم ترسل مساعديك، وهم كثر دون شكّ؟»

- هيّا! لا تهزأ! لست أهمّ ممّا كنت عليه قبل الآن، لكنّني مازلت متشدّدًا في الطّلب. هل تعتقد حقّاً أنّني سوف أدع رجالاً مغرورين يختارون بأنفسهم حجارة الرّخام المخصصة للبابا بدلاً عنّي؟ وتأتيني مثقوبة ومرشّقة بالعروق فتتشظّى عند أوّل ضربة إزميل؟ لو فعلت ذلك لَداهنتَهم وبعتَهم أسوأ الكتل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسعر من ذهب!

ربّت توبولينو على كتف مايكل أنجلو وقال مداعبًا: «ما تزال حادّ الطّباع!»

وعلى الرّغم من سروره الظاهر، لاحظ توبولينو بريق حزن يلتمع في نظرة النحّات. كان يودّ أن يعرف دواعيه، لكن أموراً كهذه لا يُسأل عنها.

- تعال إلى منزلي كي تخبرني بما تحتاج بالضبط، وسوف أرى ماذا يمكن أن أقدّم لك.

في مقلع الرخام، حيّا مايكل معارف آخرين. ردّوا عليه التحيّة بمزيج من الدفء والتحفّظ الخاصّ بهم. كان الحجّارون وعمّال الرّخام متيقّظين على الدّوام، هم يعرفون الجبل خير معرفة، ومع ذلك ظلّوا يعملون فيه وإن خبّأ لهم أسوأ المفاجآت باستمرار ليباغتهم بها دون سابق إنذار، كأن يقرّر أن ينهار على رؤوسهم. مات الكثير منهم، ولم يكونوا يملكون ما يردّون به سطوة الجبل هذه إلاّ التّسليم بمشيئته: «الجبل لا يخطئ البتّة»، هكذا يردّدون بعد كلّ حادثة انهيار.

كانت عائلة توبولينو تسكن في الطابق الأرضيّ من أحد منازل القرية. ذهب النحّات إلى هناك في المساء عينه. فإذا هم يشغلون غرفتين. الأولى منهما فسيحة ومعتمة، وفيها مدفأة عُلّق في داخلها إناء طبخ كبير. تعرّف فورًا الرائحة المنبعثة منه، وكانت لحساء دهن الخنزير وهو طبق خاصّ بالمنطقة. غير بعيد عن المدفأة، ثمّة طاولة يؤطّرها مقعدان طويلان، حولها جلس الجميع.

لدى توبولينو أربعة أطفال، أربعة آخرون توفّوا في سنّ مبكّرة.

أمّا كيارا زوجته، فامرأة قويّة البنية وعريضة الأرداف، ذات وجنتين ورديّتيْن على الدوام. ورغم المحن التي ألمّت بها، كانت تجسيدًا حيًا للمرح.

استقبلت مايكل أنجلو بابتسامة عريضة، إذ على خلاف الجيران وعائلات الحجّارين الآخرين كان ذووها يعيشون في قرية نائية وقلّما تراهم، فضلًا عن أنّ ولاداتها المتكرّرة ألزمتها المنزل، فكانت زيارة مايكل أنجلو بالنسبة إلى امرأة فضوليّة مثلها حدثاً في حد ذاته، مادام يجلب معه أخبار العالم من وراء الجبال. عندما قال لها توبولينو إنّ البابا قد استقبله، أجابت وهي ترسم إشارة الصليب: «هكذا إذاً، إنّه أقرب ما يكون إلى قدّيس!»

كانت قد حذّرت الأولاد من مغبّة إحداثهم الضجيج وأوصتهم بأن يحسنوا السّلوك حين يصل الضيف بيتهم وتبعًا لذلك جرى دخوله المنزل في صمت دينيّ. وقف الأطفال منتصبين، الواحد إلى جانب الآخر، وراحوا يحدّقون فيه.

ذُهل من الاستقبال وقال لهم: « إيه، ما هذا؟ لست الشيطان! «

فتجرأ أصغرهم، الوسخ الوجه، وردّ عليه بصوت مرتعش: «قيل لنا إنّك قدّيس. أين هالتك؟ هل خبّأتها في جيبك؟»

جلجل مايكل بضحكة انتقلت عدواها من واحد إلى آخر، وكسرت احتفاليّة وصوله، عندها عاد الأطفال إلى ألعابهم في الغرفة الثانية، وبها كانوا جميعهم يُحشرون ليلاً للنوم في السّرير الكبير.

حمل توبولينو كأسه بيده ومثله فعل الضيف وجلسا إلى المائدة. كانت صورة وجهيهما وقد أضاءهما مصباح الزيت ترتعش من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تراقص اللّهب. أخرج مايكل دفتر نماذجه الصغير وهمس إلى مُضيّفه: «كنت أودّ أن أريك رسوماتي الأوّلية. المشروع هائل. علينا اختيار خمسين كتلة رخام بمقاسات مختلفة. أنا أعتمد عليك».

-كم أعطاك البابا؟

- خمسمائة دوقية.

- هذا قليل!

كذب مايكل أنجلو. كان الحبر الأعظم قد أعطاه ضعف ذلك، لكنّه يعلم أن الحجّارين سوف يجعلونه يدفع غالياً بما أن المموّل هو البابا. وهناك أيضاً الضرائب التي سيأخذها «ألبيريكو ماسينيا» ماركيز كارّار، كي يسمح بمغادرة الرّخام الأراضي، وكذلك النّقل على متن السّفن. لذا كان يتوخّى الحذر.

بعد أن درسا النماذج معاً تناولا حساء كيارا اللذيذ، وفي نهاية العشاء طلبت منه المرأة أن يحدّثهم عن ذلك التمثال الذي كان سبب شهرته.

- الشفقة، أليس كذلك؟

- نعم، الشفقة.

- منذ ذلك الحين، صنعت تماثيل أخرى. «داڤيد»، تمثالاً عملاقًا من الرّخام التالف ينتصب منذ قرون في فلورنسا. تمثال شفقة آخر رحل إلى بروج. ولكنّ التمثال الذي تتحدّثين عنه، أردت أن أُثبت من خلاله أنّ الرخام الرائع لجبالكم يمكن أن يتحوّل إلى جسد وينثني.

توقف مايكل أنجلو لبرهة. هناك الكثير من الأشياء لا بدّ من شرحها. الكثير جدّاً. البراعة والحياة اللتان أراد أن يبعثهما في الحجر، ولا أحد غيره يكترث لهما. وبينما كان يفكّر في ذلك، شاهد نهم عيون العائلة الشاخصة إليه. فاستأنف:

- لم يسبق لي أن وقّعت باسمي على تمثال، لكنّني قرّرت القيام بذلك لهذا السبب: أنّ نحّاتاً ميلانوياً كان يحاول أن ينسبه إليه. في إحدى الليالي، تركت نفسي أحبس داخل كنيسة القدّيس بطرس. في عتمة الهيكل، حيث يوجد التمثال، حفرت اسمي على الشريط الذي يعبر فوق ثوب العذراء. ما بين ضربتي مطرقة، سمعت صوتاً خفيضاً يناديني. التفتّ ولم أرَ أحداً. كانت الشّمعة المعلّقة على قبّعتي القشّية تضيء قليلاً. من جديد، خرق الصّوتُ الصّمتَ الرّهيب حولي: «أنا على يمينك، يا معلّم. وراء قضبان النافذة. أنا راهبة من راهبات الدّير، ولا يحقّ لي إظهار وجهي إليك. أطلب منك معروفاً كبيراً». تردّدتْ وأردفت: «أعطني قليلاً من المسيح، قليلاً من غباره!» كان وراء همسها رغبة ملحّة. مزّقت قطعة صغيرة من قبّعتي. طويتها، وأنزلت في داخلها قليلاً من غبار الرخام كان يغطّي فخذ المسيح. مددتها نحوها. مرّرت يديها من بين القضبان الفاصلة بيننا، كانتا بيضاوين، ورقيقتين. وصاحبتهما ترتجف من الانفعال متابعةً بحماس: «شكراً يا معلّم، بفضلك، أحمل معي شيئاً منه». لم أعرف بماذا أجيب. بكلمات قليلة، منحت الحياة لهذا الحجر، لهذا التمثال الذي انكببت عليه لمدّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عامين، وكنت على وشك تركه للآخرين. توارت في العتمة، وفي صمت القدّيس بطرس. عادت فيما بعد، في اللّيل، ومعها طبق عجّة ساخن. قالت لي عبر القضبان: «لقد غذّيت روحي، اسمح لي أن أشبع جسدك».

المقلع

عندما يتجلّى لك الجبل، تُطالعك بُقعٌ بيضاء قليلة في قمّته ونتوءاته. وكأنّ الثلج، يتحدّى دفء الربيع ويأبى أن يذوب. أمّا ما تبقّى فمنحدر أخضر مورق حيثما ولّيت وجهك. كلّما تقدّمت في الطريق يزداد انتشار اللون الأبيض. تعبر مقالع مهجورة، فترى جذور الأشجار تغالب عقم الحجر، وتقاوم من أجل أن تستعيد حقّها في الحياة. تتوغّل أكثر فتدرك أنّ البقع البيضاء التي كنت تظنّها سطحية، تتجوّف وتمتدّ حتّى تغطّي في النهاية سفحَ الجبل بأكمله. وفجأة يظهر المقلع أمامك، فسيحاً مثل ساحة القرية. ثمّة ثيران، وجذوع دائريّة، وحبال، ورجال. حياة بأكملها تحيط بها جدران الرخام غير المنتظمة تشمخ متطاولة نحو السحاب.

أوّل مرّة جاء فيها مايكل أنجلو إلى هناك، خيّل إليه أنّه يدخل كاتدرائية مفتوحة على السماء. قال لنفسه: «حتى «برونيليسكي»، لم يكن ليصنع أجمل منها، لا أحد يمكن أن يبلغ هذا التناسب الكامل مطلقاً ما بين تباعد السماء وجمود الحجر».

قُرنت الثيران لإنزال كتلتين من الرّخام كان مايكل أنجلو قد انتقاهما في الأيّام السابقة ودفع فيهما مبلغًا كبيرًا وهو مسرور، فهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مستخرجتان من صخور في الجبل لا عيب فيها. ما تزال إحداهما على الطريق المتعرّج، ويُحتاج إلى قوّة عشرين ثوراً لجرّها. كانت الدوابّ التي تجرّ الحجارة تُقاد بلفائف من الحبال يُمسك بها رجال أشدّاء، يحفظون كلّ منعطف وكلّ وهدة عن ظهر قلب.

بالقرب من الدوابّ، يُلمح تجمّع صغير. ما إن اقترب منه مايكل حتّى ميّز مِن بين مَن فيه توبولينو وكاڤالينو. وكان الثاني يحرّك يديه في كلّ الاتجاهات ويصرخ: «ألا تخجلون من سوء معاملتكم للثيران هكذا؟ لطالما فعلتم ذلك!»

- كاڤالينو، اتركنا نعمل.

- هذا ليس عملاً، هذا تعذيب! هل ترى ذلك الثور صاحب القرن المعقوف قليلاً. لقد قال لي ذلك. لم يعد بإمكانها التحمّل!

احمرّ وجه توبولينو من الغضب.

- هل تظنّ أنني لا أعرف ما الذي حدث آخر مرّة؟ القافلة كلّها سقطت في الشّعاب. مات ثمانية عشر ثوراً يا توبولينو! وها أنت تعيد الكرّة.

- ورجلان أيضاً، لا تنسَ ذلك.

- لا أعبأ بأمر الرّجال، وفوق ذلك لم يكن هناك سوى اثنين.

أشار كاڤالينو ناحية الدواب:

- انظروا إليها! أصغوا إليها، بالله عليكم! طوال الوقت تتظاهرون بأنّكم لا تفهمونها!

- كاڤالينو، عد إلى بيتك من فضلك.

- لن أفعل، هل تسمع! سوف أستلقي في عرض الطريق، وليس أمامكم إلاّ العبور فوق جسدي!

أمسك به رجلان جرّاه حتى الدّرب المؤدّي إلى القرية. بعدها زال غضبه ليحلّ محلّه حزن لا حدود له. حين تركه الرجلان اللذان حملاه إلى هناك، انفجر باكياً وظلّ يردّد وهو ينتحب:» أنتم ذئاب، ومع ذلك، أنتم إخوتي.»..

من النادر أن يصعد كاڤالينو إلى المقلع، فالمألوف أن يبقى في القرية. لكنّ وجود النحّات واختياره لكتل الحجر، والنقاشات التي حفّت بذلك، جعلت الشابّ أكثر عصبيّة من المعتاد.

شهد مايكل المشاحنة دون أن يكون طرفًا فيها. كان قد جاء ليتحقّق من عمل قاطعي الحجارة، أولئك الذين يشذّبون الكتل الحجرية بعد اقتطاعها من الجبل كي يعطوها شكلاً قابلاً للنّقل يكون في أغلب الأحيان مكعّباً. راقب أزاميلهم كيف تنتزع شظايا الرخام عند كلّ ضربة من مهدّاتهم.

لبث يتأمّل الكُتل الرّخاميّة ويتخيّل من أيّ لبّ اقتطعت كلّ واحدة منها. كانت تلك الجاهزة للرحيل رائعة. اختار منها واحدة لنحت تمثالٍ لموسى سيحتلّ مكانه في المستوى العلويّ من القبر. ما انفكّت أصابعه ترتعش فاقدة الصبر رغم سابق علمه بأنّ عليه الانتظار أشهراً طوالاً قبل أن يصل الرخام إلى مقصده في روما، عند ساحة القديس بطرس.

بعد حادثة كاڤالينو الصغيرة، مضى النهار دون عقبات تذكر. عند الظهيرة، ألقى الجميع معدّاتهم وأكلوا سويّا خبزاً وبصلاً مغموساً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بزيت الزيتون، مع شيء من دهن الخنزير المقدّد للأوفر حظاً. كان مايكل يحبّ أن ينضمّ إلى الحجّارين رغم معرفته المُسبقة أنّه لن يُقبل أبدًا واحدًا منهم، مؤمنًا بأنّ وجوده مشفوع له بفضل معرفته الواسعة بالرّخام. أمّا هم فسرعان ما أدركوا أنّ وراء ذلك أكثر من مجرّد معرفة بسيطة، إنّه التّفاني الحقيقيّ. هم أنفسهم، لم يتخلّوا عن معتقداتهم الوثنيّة التي تمنح الحياة للجبل، وتربط الحجر بالقمر، وتدفعهم لإجلال كلّ ما يغطّي الذهب الأبيض: الأشجار والأرض.

كان يطيب للنحّات أن ينتقل من مجالسة البابا إلى مجالسة هؤلاء الناس البسطاء. لطالما كره نقابات الرسّامين والنحّاتين ومهندسي العمارة المتزمّتة، فضلاً عن أنّه ينفر من جمعيات الحرفيّين تلك، ويودّ لو يكون شاعراً في الوقت ذاته أيضًا. فهو يعتبر الفنّ وحدة متجانسة تتقارب فيها أبعاد القبّة مع أبعاد جمجمته، ويتحّد أزرق اللازورد المسحوق مع أبيات شعر بترارك.

عندما حلّ الليل، عادوا أدراجهم إلى القرية. وجدوا جرس الكنيسة يدقّ نغماً حزيناً. زوجة جيوڤاني قاطع الحجارة ماتت أثناء الولادة. وكان قد بقي إلى جوارها بانتظار الحدث السعيد طفلهما: السادس. جرت الولادات الخمس الأولى على ما يرام. أمّا ليلَتها فلم تستطع القابلة أن تشرح لماذا أبى الطفل الخروج. ماتت الأمّ من شدة الإنهاك، جرّاء ذاك الذي رفض أن يغادر بطنها، وصار جيوڤاني وحيدًا مع أطفاله الخمسة. كانت ابنته البكر في سنّ يخوّل لها العناية بالمنزل وبإخوتها أمّا أصغرهم «ميشيل»، فيبلغ من العمر ستّة أعوام.

ميشيل

بعد بضعة أيّام، تمّت مراسم دفن سوزانا وبطنها الممتلئ. في الصفّ الأوّل من الكنيسة وقف جيوڤاني وأولاده مرتّبين حسب الطول ووراءَهم وقف الحجارون جميعًا في خشوع يدلّ على عميق حزنهم وتضامنهم، كلّهم كانوا هناك، وخلفهم نساؤهم باكيات. لم يغب عن خاطر أيّ واحدة منهنّ أنّه من الممكن أن يحلّ بها ما حلّ بسوزانا، وأنّ هذه السّعادة المتكرّرة في منْح الحياة يمكن أن تكون قاضية بالنسبة إليهنّ. لم يكن الرجال يبكون، اكتفوا بالوقوف خافضين أبصارهم إلى أيديهم المضمومة.

كان الدخول إلى الكنيسة لإقامة صلاة الموت يبعث في العديد منهم ذكرى ترجع إلى قرن ونصف مضت، أثناء عام الطاعون الأكبر سنة 1350. الجميع يتحدّثون عنه لما خلّفه من موت. لقد فتك بالمنطقة كلّها. لم يعد لأحد أن يتذكّر بدقّة كم كان عدد الضحايا، لكن ما يتذكّرونه جيّدا أنّ كلّ عائلة قد دفنت على الأقلّ نصف أبنائها على عجل شديد ودون اللّجوء إلى طقوس الدّفن المألوفة في حالات الموت العاديّة.

من بقي على قيد الحياة روى لأولاده، وهؤلاء بدورهم نقلوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرواية، تحدّثوا عن أجساد ارتجفت من الحمّى، وتعرّقت بشدّة، وبصقت دماً. وصفوا لون الجثث البنفسجي القاتم. حكوا عن رجال كانوا يجلدون أنفسهم في الشوارع، كي يتخفّفوا من خطاياهم. يقينًا منهم أنّ هذا الوباء من بوادر يوم القيامة. قُرى بأكملها انبعثت منها روائح الملفوف والسفرجل، إذ شاعت آنذاك رواية مفادُها أنْ وحدها المنازل التي تحرق فيها تلك القشور لا يدخلها المرض.

أبناء الأبناء لم يروا، لكنهم سمعوا، ونُقشت الصور في أذهانهم. كانت رقصة الأموات فوق جداريات كنائسهم تساعدهم على حفظ تلك الصّور وعدم نسيان هولها أبدًا.

من أجل كلّ تلك الأسباب مجتمعة، في يوم الحداد ذاك، قبع الرجال ينظرون إلى أيديهم بخشوع شديد. مُدركين أنّهم تحت رحمة تلك اليد التي تحصد. وللنجاة منها لم يأتوا أيّة حركة فظّة، مُظهرين على الملأ تواضعهم. كان أهل كارّار إذْ يدخلون الكنيسة يغلّفهم الصمت والتحفّظ إلى أقصى حدّ.

أمّا مايكل فوقف في آخر الكنيسة، متراجعًا إلى الوراء قليلاً بالقرب من الباب، يصغي ويصلّي وهو ينظر إلى ما يجري على مسافة منه كأنّه أمام لوحة. كان يمكن لهذه الجنازة أن تذكّره بجنازة أمّه أيضاً. حدث ذلك عندما بلغ السادسة من عمره تماماً. لكن لا، لم يفكّر بها، فهو لم يحتفظ منها بأيّة ذكرى. لا شيء من ذلك دار في خلده.

لقد انصبّ اهتمامه على ضوء الشموع المتراقص، وعلى الأجسام المتراخية لكثرة ما وقفت وجلست على وتيرة رتيبة فرضها الكاهن. تحت رحمة نغمات الأورغن الخشبيّ الصغير المخصّص لوضع

الفواصل بين الصلوات وإيقاع الترانيم وهي تعلو إلى ما وراء الحجر نحو السماء. انعتق مايكل، ودون أن ينتبه، كان القداس قد أدرك نهايته.

أراد أن يُفسح للموكب ومن يرافقه حتّى يخرجوا، فيتسنّى له أن يمكث لبضع لحظات داخل الكنيسة الخالية ويستمتع بالصّمت حين يرين عليها.

عبر الرجال والنساء من أمامه. كان يحيّي بعضهم لمّا اندفع صبيّ صغير نحوه مادّاً ذراعيه. إنّه ميشيل ابن جيوڤاني الأصغر. لم يسبق لهما أن تحدّثا. التفت وهو يتساءل ما إذا كان الولد يتّجه نحو شخص آخر. فتيقّن من أنّه يتّجه نحوه هو بالفعل. وما إن وصل إليه الطّفل حتّى تعلّق بساقيه واحتضنهما بذراعيه وانخرط في بكاء شديد.

لم يعرف -تحت وقع المُفاجأة- كيف يتصرّف، ثمّ تملّكه القرف فجأة، فانتزع الصبيّ من عناقه وصرخ: «اذهب... إليك عنّي! أنا أكره الأولاد!»

نظر إليه ميشيل مرتبكاً. جفّف بظاهر يده الدّموع الجارية على خدّيه، وانضمّ إلى الآخرين دون أن ينبس ببنت شفة. من سمع منهم تلك الصّرخة التي أطلقها مايكل نحو الطّفل الصّغير تمتم ببعض الكلمات المُزدرية له. أمّا الموكب فتابع تقدّمه وكأنّ شيئاً لم يكن.

لم يمكث مايكل أنجلو في الكنيسة كما كان ينوي. عاد رأسا إلى غرفته وأغلقها على نفسه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كارّار، في 20 نيسان 1505

الأخ غويدو،

لم أرسل إليك رسالتي الأولى، وهذه أيضاً، سيكون لها المصير نفسه بالتأكيد. لا أعرف. لم أعد أعرف.

خرجت مهرولاً من الكنيسة. جرى فيها قدّاس جنازة سوزانا، امرأة ماتت أثناء الولادة. لم أكن أعرفها. ذهبت إلى هناك دعماً لزوجها «جيوڤاني»، الحجّار الذي أرافقه هنا أغلب الوقت.

كيف أقول لك، لك أنت بالذات، إنّي لم أعر انتباهاً شديداً للقدّاس؟

تناقشنا مرّات عديدة بهذا الخصوص، ولم أخفِ عنك شكوكي في ما يخصّ طقوس ديانتنا. ولكن، مهما يكن، أنت تعرف صدق إيماني بالله وبابنه المسيح.

كنت بينهم، متراجعاً إلى الخلف بجوار البوّابة، ناظرًا إلى ظهورهم المحنيّة المُثقلة بالورع. في نهاية القدّاس، لحظة كان الموكب خارجاً، ركض نحوي أصغر أولاد جيوڤاني، وتعلّق بساقي باكياً.

في تلك اللّحظة، يا أخي غويدو، أعترف لك، ومن سواك

بوسعي الاعتراف له؟ عوضاً عن الشعور بالتعاطف مع الطفل وهو يتهيّأ لدفن والدته، شعرت بالكراهية. كراهية وحشيّة، اندفعت إلى صدري. ودون أن أتمكّن من فعل شيء آخر دفعت بالصبيّ وأنا أطلب منه أن يرحل عنّي.

خلال الأسبوعين اللذين أمضيتهما هنا، توصّلت إلى نسيان أندريا. لا بل انتهيت إلى الاعتقاد بأنّه لم يعش قطّ. حتى الضوء المنسكب على صدره الأمرد في المشرحة نسيته دون أي أثر لأدنى ذكرى.

والآن، ردّة الفعل التي لم أحسن السيطرة عليها تجعلني أنغلق على نفسي داخل هذه الغرفة. أربعة جدران وباب يحميني من الآخرين.

لم ينهِ مايكل أنجلو رسالته. أحرقها وشاهد الورقة تنكمش ورمادها يسقط فوق الطاولة. وحين لم يبقَ منها إلاّ كومة رماد صغيرة بدأ من جديد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كارّار، في 20 نيسان 1505

الأخ غويدو،

كيف حالك؟

غادرت روما على عجل، وأعتذر لك لعدم إيفائك بأيّ مؤشّر حياة عنّي منذ ذلك الحين.

أنا الآن في كارّار، وأنوي المكوث فيها أيضاً لعدّة أشهر من أجل انتقاء الرّخام وترتيب إجراءات نقله إلى القبر الذي طلبه منّي قداسة البابا المبجّل.

ثمّة سؤال ينخرني منذ رحيلي: ما سبب موت أندريا؟ هل تتكرّم وتجيبني عليه؟

آمل ألّا توقظ تساؤلاتي الكثير من الحزن لديك.

من موطني في جبال توسكاني، أنضمّ إليك في صلواتي وأبقى المخلص لك دائماً.

مايكل أنجلو بوناروتي

الرّسم

آلى مايكل أنجلو على نفسه أن يبعث رسالته الأخيرة. يجب كسر هذا الصّمت. لم يكن بوسعه أن ينأى عن استرجاع ذكرى الأخ غويدو وقتًا طويلًا. فضلاً عن أنّه يريد أن يعرف. ولكن قبل كل هذا، كان هناك شيء ما عليه القيام به أوّلاً هو الاعتذار من جيوڤاني وولده. سوف يذهب للقائهما في صباح اليوم التالي مبكّراً، قبل أن يسلك الحجّار طريق الجبل.

ولكي يضمن محو إساءته للطّفل ميشيل، عليه أن يُقدّم إليه هديّة. وبما أنّه لا يملك أدنى فكرة عمّا يحبّذه الأطفال فقد قرّر أن يقدّم إليه شيئا ممّا يتقنُه: رسماً. أخذ ورقة صغيرة وبدأ يخطّ بالحبر حوافّ كلب. كلب يهرول. لم تكن الورقة كبيرةً بما يكفي حتّى يُعرف ما الذي كان الكلب يجري وراءه. فقط بدا كلبًا مُجهداً، مشدودَ العضلات، وداخل فمه نصف المفتوح يُطلّ لسانه الصغير الدقيق من بين أنيابه.

رسمه مايكل أنجلو بسرعة. لا يبدو الكلب لطيفاً ولا لعوباً. ليس فيه أيّة علامة فارقة تثير الإعجاب، أو تحرّك العواطف لدى الصبيّ. لكنّه لم يعبأ بذلك. المهمّ أن يقدّم شيئاً ما، وهذا الشيء في نظره كثير وكافٍ ليُدرك به ما يريد. ومهما اعتُبر الموقف الصادر عنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الكنيسة غير لائق، فإنّه كان تعبيرًا صادقًا عن تلك الحقيقة: إنّه لا يحبّ الأطفال فعلاً. هم في نظره تافهون وقذرون، يسيل المخاط من أنوفهم، ولا يكفّون عن إثارة الصّخب. كان يرى أنّه من المُستحسن عدم التعلّق بهم فكثير منهم يموتون قبل بلوغ سنّ الخامسة. لذلك يُخيّر أن يتصرّف وكأنّهم غير موجودين. وهذا الكلب الذي رسمه للتوّ من أجل ميشيل يبدو له على الأقلّ إثباتاً حقيقياً للاهتمام، إن لم يكن للصّداقة. اهتمام يبديه نحو جيوڤاني خصوصاً، كي يتّخذ الاحتياطات المناسبة.

وقّع مايكل أنجلو على الرّسم مسبوقاً بإهداء قصير: «إلى ميشيل». لن يعرف الطفل ذلك، لكن الوالد سوف يعي أن بإمكانه بيع الرسم لاحقاً بسعر جيّد.

في ذاك المساء، نام النحّات محطّماً من التعب. غرق في نوم خالٍ من أيّ فكرة أو وجه أو حلم، نوم يعيد ترميم جسده ويكظم ثورة الانفعالات التي أحسّها خلال النهار.

نام بكامل ملابسه كالمعتاد. اكتفى بنزع حذائه وخلع سترة جلد الخروف. منذ الطاعون الكبير، نُشرت كلّ أنواع النصائح للبقاء بصحّة جيّدة. تبنّى والده أفكارًا في غاية الصّرامة. من ذلك أن كان يحثّ أبناءه على عدم الاغتسال إلاّ نادرًا. فالمياه، بحسب رأيه، تنقل الأمراض ويجدر بهم تجنّبها. كان يقول لهم: «اشربوها ممزوجةً بالنّبيذ لاغير! والأهمّ من ذلك أن تلامس أجسادكم أقلّ ما أمكن، فهي عندما تخترق جلودكم وفوهاتكم، تحمل إليكم الأمراض!»

اتّبع مايكل نصائحه بدقّة، تقريباً لم يغتسل قطّ. كان يكتفي بغسل

يديه ووجهه فقط حين يمتزج غبار الرخام مع عرقه ويشكّلان قشرة مقزّزة، ظنًّا منه أنّ الأوساخ تحميه من الأمراض. وما أكثر من هم على مثل موقفه. إذ يبدو أنّ الجميع تقريباً كانوا يميلون إلى هذا الخيار.

في صباح اليوم التالي، استعجل النحّات الوصول إلى منزل جيوڤاني. قرع الباب ففتح له الحجّار وقد كسا وجهه الحزن ولمّا رآه قال بنبرة باردة: «ما الذي أتى بك باكراً جداً؟»

- جيوڤاني، جئت أعتذر إليك وإلى العائلة كلّها عمّا بدر منّي البارحة.

أمعن الحجّار النّظر فيه لبضع لحظات صامتاً. لم يدعُه للدّخول وبقي وراء الباب الموارب. ثمّ أجاب بصوت منهك: «حسن، أقبل اعتذارك. نلتقي لاحقاً في المقلع».

كان على وشك إغلاق الباب، انبعث صوت آخر من داخل المنزل. صوت امرأة تقترب. كانت هذه ابنة جيوڤاني البكر. تسمّرت أمام النحّات، وبخلاف والدها، بدت ساخطةً، فجاءت نبرة صوتها الحادّة صدى غضب كُتم ليلةً كاملةً: «من تحسب نفسك؟ هل تعتقد أنّ رؤيتك للبابا تسمح لك بمعاملتنا بهذا الاحتقار؟ وكأنّنا رعاع!»

سحبها جيوڤاني إلى داخل المنزل بلهجة آمرة صارمة:

-أنتونيلا، ادخلي واسكتي!

أجابت بالنبرة ذاتها:

- اتركني! بما أنّ أمّي لم تعد موجودة الآن، يحقّ لي أن أتكلّم، وسوف أستخدم هذا الحقّ!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التفتت من جديد ناحية مايكل أنجلو وصرخت:

- اغرب عن وجوهنا ولا تقترب ثانية من هذا المنزل ما حييت!

لم يردّ عليها النحّات وظلّ هادئاً. لاحظ ظهور رأس صغير إلى جانب تنّورة الفتاة. لا بدّ أن صوت أخته الرّاعد قد أيقظه. ما إن ظهر ميشيل حتّى توجّه إليه مايكل وقال بنبرة متودّدة:

- ميشيل، رسمت لك كلباً صغيراً. أرجو أن تغفر لي.

ودّ لو يضيف شيئاً ما، لكنّه كان مرتبكاً.

التقط الصبيّ الرّسم قبل أن يسنح الوقت لأخته وتمنعه من ذلك، ثمّ توارى في عتمة المنزل.

طلب النحّات الإذن بالرحيل بأشدّ الأساليب الممكنة تهذيباً متمنّياً للجميع نهاراً طيباً. وعندما ابتعد، كانت الشتائم تلسع ظهره مثل السّياط.

الحجر الصّافي

سلك درب المقلع وشتائم أنتونيلا تتطاير نحو السّحب المحمّلة بالأمطار. كانت الأرض موحلة، ورائحة الدبّال والطّحالب تنبعث من الأشجار. رغم الضباب الخفيف، جلس على إحدى كتل الرخام المتروكة بلا عناية إلى جانب الطريق. طفت نظراته فوق غدائر المياه التي تشكّلت أثناء الليل على تلك الأرض، الأرض التي قُسيَ عليها بكثرة ما عبر فوقها من رجال ودواب. «لن تنزل الثّيران اليوم»، فكّر. سوف ينتظرون سماءً أكثر صحواً.

عاد بذاكرته إلى الطريق الذي كان يسلكه وهو طفل عند مُرضعته للذّهاب إلى مقلع الحجر الصّافي، ذاك المستخرج من الجبال المحاذية لفلورنسا. لم يكن يصلح للتماثيل، بل للواجهات فحسب. كان الرجال العاملون في المقطع مشابهين لأهل قرية كارّار رغم الفوارق والمسافة بين المكانيْن. الأجساد المنهكة ذاتها، التكاتف ذاته أمام جبل لا يؤتمن جانبه، وقبل هذا وذاك الصخب ذاته: طرْق المهدّات المباشر على الأزاميل يتناوب وأصوات الفولاذ الثاقب للحجر. والجبل يردّد رجع الصدى إلى ما لانهاية.

في خضمّ كلّ ذاك الهرج والمرج ترعرع مايكل أنجلو، حتّى غدا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأمر بالنّسبة إليه موسيقى عذبة، تكاد تكون هدهدة ينام على إيقاعها. كان زوج مربّيته حجّاراً. وكانت المربّية كلّما ذهبت لملاقاته في مقلع الحجارة تأخذ معها مايكل. يذكر أنّ كلّ ما تعلّمه يعود فيه الفضل إلى الاحتكاك بأولئك الرجال. بما في ذلك الرّقص على وقع أزاميلهم. كان يذهب ليتفرّج عليهم. وكلّ واحد منهم يشرح له ما الذي يقوم به. يتذكّر أيضًا أنّه لعب مع الثيران هناك، ومع بعض الأولاد ممّن كانوا ينضمّون إليه بين الحين والآخر.

من تلك السنوات، اختزنتْ ذاكرته الحبور الشديد والنّور الدافئ كدفء صدر مرضعته أيّام كان يقبل عليه بلهفة ويستكين إليه مطمئنًّا.

سكنته حمّى الحجر من فرط ما خالط ضحكاتهم وعاشر جبلهم فلم يعد قادرًا على مفارقتها قط. اخترقته مثل شلال. كان يجد متعة كبيرة في ملامسة بعض الأدوات ونشوة عظيمة في سرقتها غفلة عن أصحابها كي يستعملها على هواه. وحين يُسأل عنها لم تكن تعوزه القدرة على الكذب بكلّ جسارة قائلاً: لا، لست أنا من سرقها. كان أيضًا، يأخذ قطع الحجارة الصغيرة الساقطة أو التي أهملها الحجّارون ويلعب بها. يطقطق بعضها ببعض ويصغي إلى الموسيقى الصادرة عنها، يطبعها في قلبه حتى لا ينساها أبداً، وقبل كل شيء، كان يقول لنفسه إنّه حين يتعلم الإمساك بالحجر، سوف يتعلم الإمساك بالعالم، وبشكل أدقّ، أن ينحته كما يشاء خياله، والله وحده أعلم إن كان يملك الخيال حينئذ.

كان الحجّارون يضحكون من رؤية صبيّ المدينة، هذا الفائق السّرعة في اللّحاق بهم، بين الأغبرة يتمرّغ بها في غبطة وسرور. لمّا رأى

أنّ الكبار لا يعيرونه أزاميلهم عن طيب خاطر، بدأ يرسم كلّ ما يراه. ولمّا رأى الحجّارون أوّل رسومه كفّوا عن الضّحك. كانت رسومه الأولى تعكس موهبة الصبيّ الفذّة التّي أثارت كلّ من رآها وبلغت بالبعض منهم حدّ إنكارها وادّعاء أنّ شيطانًا يسكنه هو من يتولّى رسمها. ولكنّ الفتى ما عاد يصغي إليهم قطّ، فقد انفتح في داخله طريق مضيء ودمويّ، وعقد العزم على أن يسير فيه طوال حياته.

كانت مربّيته تخزن في أعماقها من الحبّ ما يكفي لإقناعه بأنْ ليس له أن يخشى شيئًا. وأنّه إذا كانت تلك هي طريقه، فيجدر به ألاّ يتركها تفلت منه. وفي سبيل ذلك، كان عليه أن يفعل شيئيْن: نسيان الآخرين، والغوص في أعماق ذاته. (وقد استخدَمت هذه العبارات تحديدًا). وعندما غاص أوّل ما غاص، في داخل رأسه، اكتشف أنّه قدْ قُدّ من حجر حيّ Pietra viva.

أحياناً، وبالأخصّ في أيّام الآحاد والأعياد المقدّسة، كان والداه يأتيان من مدينة فلورنسا القريبة لأجل رؤيته، فيصيبه من ملاقاتهما شعور غريب. مزيج من الفرح والخجل يعتمل في أعماقه. ولكنّه لم يحتفظ من كلّ ذلك سوى بذكرى غامضة جدًّا وصور غائمة باهتة. من والدته بقي خيال مشوّش فحسب. أمّا عن وجهها وصوتها فلم يعد يذكر شيئاً قطّ. إنّه النسيان.

وهو يجلس فوق حجر على الدرب، كان مايكل يحاول تتبّع منعطفات ذاكرته. مرّت سنون لم يمضِ فيها عبر الطريق الخفيّ ذاك، لكنّه لحظتها وجد نفسه منساقا إليه.

لم وقتها تحديدًا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هل كان ذلك بسبب الطريق الممتدّة عند قدميه، والتي قادته من الحجر الصّافي إلى الحجر الحيّ، ومن يومه المعيش ارتداداً إلى يوم موت أمّه، ذلك اليوم القصيّ، حين غابت عن نظره.

هل كان ذلك اليوم حقيقة؟

أخذ حصاة ورماها إلى أبعد ما سمحت به قوّة ذراعه.

انتهى وهو يسرّح البصر في الأفق وقد عبرته الحصاة التي ألقى إلى أنّ هناك لحظتين يذكرهما بصفاء ووضوح كاملين:

الأولى، عندما ضمّته المربّية إليها بقوّة. في ثنايا الخوف الذي أحسّ به الطفل بغتة، قيلت كلمتان ذهبتا بالعطف الذي كان يعيش في كنفه حتى ذلك الحين.

«لقد ماتت».

لا يمكن أن تكون أخرى غير أمّه. كان يعرف ذلك قبل أن تشرح له مربّيته. لمْ يبكِ، تقيّأ كي يُخرج بأقصى سرعة الحقيقة التي كانت قد نفذت إليه لتوهاّ.

أمّا الثانية، فدخوله إلى غرفة الموتى، هناك كانت أمّه ترقد. في تلك اللحظة بالذات، عاهد مايكل أنجلو نفسه على ألاّ يذكرها بعدها أبدًا. أقنع نفسه أنّ ذلك الألم لا وجود له، وأنّه لا يعرف تلك السيّدة التي يجبرونه على الذهاب لرؤيتها. محا حينذاك من ذاكرته كلّ صورة عنها، فاختفى كلّ أثر لها وانتهى إلى الاضمحلال داخل فكره العنيد، مسحوقاً من قبل إرادته الصّلبة.

هكذا أصبح في سنّ السادسة، يتيم الأمّ والذاكرة.

العبد

كان مايكل أنجلو يُواصل جلوسه على حافة الطريق. أخذه تفكيره إلى غداة يوم جنازة والدته عندما عثر على صندوق في منزل عائلته وأصبح «صندوق ذكرياته».

حين فتحه للمرّة الأولى ووجده فارغًا سُرّ لذلك وفكّر في أن يملأه على هواه. ذهب إلى الحديقة وأعدّ باقة صغيرة من النباتات: بعض أزهار النّفل -لم يكن محظوظا في ذلك الصباح، إذ لم يصادف أزهاراً بأربع بتلات- أضاف إليها غراس أعشاب ورتّبها كلّها في قعر الصندوق، وفوق السرير الأخضر وضع حجراً أبيض كان انتقاه بعناية.

نظر إلى كلّ ما جمعه. أخذ نفساً عميقاً، وحين أحسّ بأنّه مستعدّ، أغلق الصندوق بمفتاح نحاسيّ صغير، ثمّ دفنه تحت الشجرة الكبيرة في الحديقة ورمى المفتاح في البئر.

كان صندوق ذكرياته يضمّ في داخله ملامح أمّه.

لم يلحظ النحّات الشارد في أفكاره المطرَ وقد بدأ يهطل بغزارة، ولا حضور كاڤالينو إلى جواره.

- ماذا تفعل تحت المطر؟ نادراً ما عرفتُ كلاباً تحبّ الاستسقاء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- كاڤالينو، لم أسمعك تصل!
- آه، نعم. حوافري تزداد هدوءاً. هل تريد أن أقول لك لماذا؟
- بكل سرور.
- أدركت منذ عهد قريب أنّ كلّ ما لا يلمس الأرض هو في السّماء. لقد اكتسبت حوافري خفّة الريش. ضع يدك على العشب.

طفقت راحتا يدي مايكل أنجلو تداعب العشب المبلّل.

- كما ترى، إنّ باطن يدك يلمس الأرض، لكنّ أعلاها في الهواء. والآن، بما أنني مدرك لذلك، فقد صرتُ أنظر إلى أصدقائي بطريقة مختلفة. البارحة، ذهبت لرؤية فرسي البيضاء الرائعة في البريّة. قلت لها إنّ رموشها ترفرف وترتطم بالغيوم، وقريباً تلامس أذناها القمر. وللمرّة الأولى أرى الحبّ في عينيها. حدث ذلك كما لو أنّني عثرت على سرٍّ وتوجّب عليّ خوض هذه التجربة كي تمنحني حنانها أخيراً.
- كاڤالينو، حتى الكلاب مثلي تغطيها السّماء؟
- بالتأكيد! شرحت لك ذلك منذ قليل: تبدأ السّماء حيث تنتهي الأرض.

حلّ الصمت بينهما لحظات. ثمّ كسره صوت كاڤالينو الهامس:

- مايكل، أنت حزين اليوم. حوّلت نظرك إلى داخلك. كشفت لك عن سرّي كي يسكن روحك لأنّك من الأشخاص النّادرين الذين بوسعهم فهمي. لا تقله أمام الآخرين، فهم ليسوا مهيّئين لسماعه.

ألقى كاڤالينو كلماته تلك، ثمّ نهض وسلك مجدّداً الطريق إلى القرية.

بقي مايكل وحيداً. ما يزال وابل المطر يهطل بغزارة. أغرقته بصيرة صديقه في عمق حجره الحيّ أكثر فأكثر. أحسّ بأنّه أسيره، وأسير أفكاره ومشاعره الغامضة. كان يودّ أن يتخلّص منها ويستعيد استهتاره، لكنّه كان مثقلاً بالأفكار.

بغتة، تخيّل رجلاً سجين صخرة. شخصاً يتردّد ما بين الخروج من المرمر أو البقاء فيه، مبلبلاً من ازدواجية أحاسيسه، ووجهه غارق في الألم والفرح.

أضحت الصورة عندئذ واضحة تماماً في ذهنه. لم يكن عليه سوى رسمها في كرّاسه الصغير.

وقف هو أيضًا كي يعود إلى القرية ويرسم بأسرع ما يمكن ما كان يراه حينها بوضوح شديد. عدد كبير من الرّجال سوف يتّخذون لهم مكاناً حول قبر البابا. سوف يمثّلون الصّراع الدّائم مع الزّمن ومع المادّة والموت. وسوف يوضّحون على ذلك النّحو خلود روح قداسة البابا.

نزل إلى الطريق مسرعاً من فرْط الحماس. راقت له فكرة هذه التماثيل. لم يخامره الشكّ لحظة واحدة في أنّها سوف تكون رائعة. عرف ذهنه المبدع على نحو عجائبيّ كيف يستخرج من مخيّلته عدّة أشخاص. لا بدّ من العثور على كتل الحجر الملائمة وتعريتها كي يظهروا في عريهم الأوّل.

إنّهم عبيد الحجر الحيّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جواب

خلال الأسابيع التّالية، ظلّ مايكل أنجلو يعمل بلا انقطاع، الطاقة التي عصفت في داخله عندما عبرت خاطره فكرة السّجناء لم تفارقه البتّة.

بمساعدة توبولينو انتقى كتل الرخام، وقام الحجّارون بتشذيبها -بحيث يمكن نقلها- حتّى صارت جاهزة لتسلك طريق البحر.

جاوز ذهن مايكل الساعات مفكّراً دون أن يشعر بها. كان يتلهّف على تجسيد التماثيل كما تخيّلها. لا الجوع ولا النّعاس خفّفا من إيقاعه. أمضى لياليه يتقصّى الظلمة وينتظر الفجر.

في الصّباح، كان أوّل القادمين إلى المقلع ليراقب الجبال وهي تتفكّك فيتمكّن من أن يبعث فيها أشكالاً تخصّه، ويمنحها حياة على طريقته.

كان يتخيّل، ينحت، يبدع، كي يثبّت رغبته في الحجر.

كذلك مضت الأسابيع بسرعة إلى أن وصلته رسالة من الأخ غويدو فتجمّد الزمن من جديد. اللهاث الذي توقّف على نحو مباغت، تركه بلا وعي تقريباً، مثل المصروع.

روما في 19 أيار 1505

معلّم بوناروتي:

أشكرك على مدّنا بأخبارك. في البداية أصابنا القلق، ثم علمنا أنّك في كارّار.

الحياة في الدّير تسير على وقعها المنتظم. دفنّا الأخ أندريا بعد ظهر يومِ آخرِ زيارة لك. أنا وإخوتي، لا يساورنا الشكّ بأن الله تلقّاه إلى جواره.

نأمل أن نراك قريباً في روما، واعلم أنّنا نصلّي كلّ يوم من أجلك، كي تنجح في مشاريعك وترتاح نفسك.

نتمنّى لك إقامة طيّبة في كارّار. نحن واثقون من أنّ موهبتك سوف تعرف كيف تكرّم عظمة روح قداسة البابا.

الأخ غويدو، خادم الله

قرأ مايكل أنجلو الرّسالة، ثم أعاد قراءتها عدّة مرّات. لم يعلمه جواب غويدو بشيء. أو على الأقلّ لم يكن يعنيه منه شيء. تذكّر مع ذلك أنّه كان قد حدّد سؤاله بدقّة: ما الذي حدث للأخ أندريا؟ وفي خصوص هذه النقطة، لم يقدّم غويدو أيّة معلومة، على الرغم من حميمة جوابه.

لعلّهم لا يعرفون؟ أو ربّما يكونون قد نسوا؟ أو قد يكون هناك أمر لا يريدون الإفصاح عنه؟

عندما فضّ مايكل أنجلو الرسالة، كان قد وصل لتوّه من المقلع. ترك العشاء الذي أحضرته له ماريا في غرفته (يخنة الفاصولياء مع لحمة العجل السميكة) يبرد فوق المنضدة. فتح النافذة المطلّة على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السّاحة. كانت صيحات الأولاد وهم يلعبون في فناء الكنيسة تصل إليه. رأى من بينهم ميشيل يلوّح باتجاهه بحركات عديدة نشطة. ردّ عليه بإيماءة من رأسه قبل أن يرسل نظره هائماً في الأفق. كان الغسق الربيعيّ يتّخذ تدرّجات لون مزيج من الأصفر والأحمر وبعض درجات اللازوردي.

لماذا يتجمّد الزمن هكذا، بينما يجعل اندفاعي للإبداع الجبلَ ينثني؟

كان يشعر بذلك منذ عهد قريب، وها هي فجأة، قراءة رسالة صغيرة، بضع كلمات فوق ورقة، أوقفت الزّمن.

أندريا، أيّ شيء فظيع حدث لك حتّى أنّهم لا يريدون إخباري به؟ ولئن كان لديهم فعلاً شيء يخفونه، لماذا استدعوني كي أشقّ جسدك؟

كان الإنجيل الصّغير في مكانه على الطاولة، لم يُلمس بعد. أخذ كتاب بترارك فانفتح حيث دُسّ ذلك الجزء الصّغير من الورقة لحفظ الصّفحة. تذكّر العبارة:

«يمتدح الموتُ الحياة، كما يقرّظ الليل النهار».

راح يتصفّح قصائد غنائية أخرى كي يمحو طعم المرارة السائل في فمه. وقع نظره وهو يقلّب الصفحات عشوائياً على مقطع صغير يذكر فيه الشاعر تفوّق الجمال السرمدي على الجمال الفاني. أمّا هو نفسه، فبمَ يؤمن حقيقة؟ تردّد السّؤال في أعماقه وهو يتأمّل الكلمات كالمذهول: ألم يكن الجمال السرمدي يهزّه أقلّ ممّا يحرّكه الجمال الفاني والحيّ رغم ذلك؟

كان يرى وجه أندريا بوضوح. يداه تشكّلانه دون عناء بالصلصال. سوف تمسّد سبابتاه، بحركة متناظرة، الأنف والجفنين والذقن والفكّ البارز. والفم أيضاً: الشّفة العليا الرقيقة المحتشمة تعلو الشّفة السفلى الأكثر استدارة وشهوانيّة. كان أندريا تجسيمًا حيّا لهذا التناقض: التواضع والإثارة.

في تلك اللحظة، سخر من جمال أندريا السرمدي. كان يريد أن تجري فيه العروق النابضة، ولكنّ بترارك لا يطمئنه بشيء. وهكذا يجد النحّات نفسه، كما الشاعر تمامًا، داخل درب الحِداد. ولعلّه كان يشقى بما هو أعظم وأدهى: عدم اليقين ممّا جرى.

هل تمنحني معرفة ما أصاب أندريا ما أحتاجه من صفاء؟ هل يصبح موته أقلّ وطأة حين ينجلي ما أحاطه من غموض؟

لم يكن يعتقد ذلك. لكنّ شيئاً ما في ذاك الغموض كان يقبض صدره. هل لأنّه رأى جثمانه دون أيّ جرح، دون أيّ شيء يمكن أن يبرّر وفاته؟ ولا أيّ أثر محسوس باستثناء الجلد الدّاكن والنَفَس المتوقّف.

كان وهو ينظر إلى آخر أنوار الغسق يتذكّر عمليّات التشريح التي مارسها قبل عشر سنوات في فلورنسا، في قاعة صغيرة من مشفى دير «الروح القدس».

ذات يوم، وجد نفسه بمواجهة جثمان امرأة حامل. في البدء تردّد، ثمّ تماسك وشقّ ببطء البطن البارز. الجلد أولاً، ثمّ العضلات، فالمشيمة التي تحتوي المخلوق الصغير. كان بارداً ولزجاً، مشدوداً إلى جسم أمّه بحبل. لم يكن أكبر من قبضتيْ يدين مضمومتين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدأ مايكل أنجلو يرتجف، ولم يستطع الإمساك به طويلاً بين يديه، لشدّة إحساسه المباغت بأنّه يمسك بين يديه سرّ العبور من الحياة إلى الموت، في تلك اللحظة التي اقتلعت كلّ أمل بالوجود الأرضي لذاك الكائن الفائق الهشاشة الذي لن يتخطّى أولى مراحل كينونته. تسنّى له في الوقت القصير لتفحّصه إيّاه أن يلحظ أنّ كلّ شيء فيه قد بدا مكتملاً: الأعضاء يغطّيها زغب ناعم، الأصابع وأظافرها، الأجفان ورموشها. كلّ شيء يشير إلى أنّه قابل للحياة عدا القلب الخالي من النّبض.

بعد ذلك، لم يعاود شقّ أيّة امرأة حامل البتّة. كانت تلك المرّة الوحيدة كافيةً له كي يلمس ما يعجز عنه الوصف دون أن يتكشّف له شيء مطلقًا.

اليوم يجد نفسه، مرّة أخرى، داخل الضّيق المرير نفسه. ذاك الذي يحاول تلافيه فيلاحقه باستمرار.

«أندريا، أنت الجمال السرمدي في أكمل صورته. أودّ لو أنّ جسدك يغدو حجراً. العنصر الوحيد الذي أحسن معالجته وأعرف كيف أتملّكه».

البحر

في اليوم التالي، ذهب مايكل أنجلو باتجاه شاطئ البحر من أجل التّفاوض مع البحّارة حول النقل البحريّ لكتل الرخام. كان النهار مشرقاً، والطبيعة وقد داعبتها الشمس الساطعة في حالة فوران.

أسعده الابتعاد لساعات قليلة عن كارّار وأحسّ بأنّ بهجة الغطاء النباتي المتفجّر تحت أشعّة شمس أيار، والأمل بالربيع الجديد يحملانه فوق الأرض. وبينما كانت طقطقة حوافر دابّته الرتيبة تهدهده، ابتسم مفكّراً بصديقه كاڤالينو وقال لنفسه إنّه لم يطأ السماء بعد، لكنّه سيصل إليها ذات يوم.

غويدو ورسالته، بترارك وقصائده، أندريا ووجهه، كلّها بقيت حبيسة الضباب في كارّار.

بعد عدّة ساعات قضّاها في الطريق، وصل إلى الشاطئ الكبير، حيث كانت كتل الرخام قد وضعت فوق قطع الخشب الدائرية ودُحرجت فوق الرمال، وهياكل السّفن الهائلة تحيط بقوالب الحجر منتظرةً أن ترفعها إلى العنابر ثيران لاهثة مسرجة بحبال تسحب الحمولات الضخمة عبر بكرات كبيرة متينة.

كان البحر يكاد لا يُرى من وراء الجموع الغفيرة والجلبة الصاخبة التي حجبت هدير الأمواج وهي تتقافز إلى الشّاطئ لتنثر زبدَها الناعم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فوق الرمال وتتراجع دون أن يُسمع لها صوت.

دنا مايكل أنجلو من زمرة من الرجال. كان بينهم قبطان الأسطول الذي سيحمل كتل الحجارة إلى مرافئ إيطاليا، وقد سبق للنحّات أن تعامل معه. شرعا في نقاش حادّ، على الرغم من نبرتهما الهادئة، وهما يتفاوضان في الأسعار، والمهل، وما يلزم من شروط العناية بالرخام أثناء الرحلة، وبالأخصّ طريقة إنزاله من المراكب. كان من الضروريّ أن يُدفع المبلغ نقداً. يعرف مايكل أنّه مغلوب لا محالة، لكنّه ساوم قدر استطاعته لعلّه يستطيع أن يخفّض ولو قليلاً من المبالغ الباهظة التي فرضها القبطان. الجميع يعلمون أنّ القوالب التي يتوجّب تسليمها إلى روما سوف تُستخدم لبناء قبر البابا في كنيسة القدّيس بطرس بالذات. أصبحت كلمة «القاتيكان» في عرف التجّار مرادفًا لكلمة «ثراء»، لذلك صعُب على مايكل أنجلو إقناع القبطان بأن يبقى عقلانياً.

بعد ساعاتٍ وساعاتٍ من النقاش في ظلّ هيكل سفينة جانحة على الرمال، انتهيا إلى الاتفاق على الأسعار وعلى تواريخ تحميل الرخام.

أنهكت المفاوضات مايكل. كان جائعاً فاشترى أسماكاً مشويّة صغيرة من الصيّادين المصطفّين جلوسًا على طول الطريق المحاذي للشاطئ، وقد غطّوا أسماكهم المقلية بقطع قماش، وكانوا أغلب الأحيان يبيعون كلّ ما اصطادوه في الصّباح نفسه. جلس يتلذّذ طعم السمكات مقرمشاً الحسك تحت أسنانه وتاركاً زيت الزيتون الجبليّ يسيل على طول أصابعه.

بدأ ركام التوتّر الذي تملّكه أثناء مفاوضاته الأخيرة بالتبدّد تدريجيّا. انبهر مجدداً بأشعّة الشمس، لم يمنع تأخّر الوقت توهّجها وانعكاس أشعّتها الشّديدة على الرمال. ظل النّور يقطر منها في ما يشبه هالة مضيئة، فجعله يرمش. كانت الأرض من تحته ترتعش، أمّا البحر فبدا من بعيد مثل سحابة زرقاء رقيقة.

قبل أن يسلك الطريق إلى كارّار، أحسّ برغبة في المشي على امتداد المياه بموازاة الشّاطئ مُتلافياً القوارب والدوابّ والرجال. خلع حذاءه، لم تكن قدماه قد وطئتا الرّمال منذ سنوات، وسرعان ما تراكمت حبيْبات الرمل الناعمة بين أصابع قدميه، وفجأة كاد يفقد التوازن ويسقط وقد تعثّر في الرّمال. بعدها تقدّم ببطء وحذر، متنعّماً بالدفء المتسرّب إليه مع كلّ خطوة يخطوها فوق حاشية الرمال المبلّلة حذو البحر. كانت قساوة الأرض ولونها يتغيّران بحسب طبيعة الأمواج وقوّتها، والقسم الأكثر جفافاً وهشاشة يتقصّف تحت قدميه ويشكّل صفائح رقيقة بنّية اللون منفرطة الحواف. كلّما اقترب من البحر أكثر ازدادت الرمال تراصّاً. بعد برهة، لم يعد يُرى من أثر على الرّمال إلاّ ما خلّفت قدماه.

أرخت تلك النزهة على حافة المياه جسده. كان يتقدّم على وقع الأمواج وأنفاسه تحطّ فوق الزبد وتتلاشى، حتّى ذاب في البحر دون أن يلامس جسده ماءه.

في تلك اللحظة، شعر بأنّه حرّ تماماً. وعندما التفت ناحية الجبل الذي كان يعانق المشهد على بعد بضع فراسخ، تدفّق في داخله سرور غير متوقّع. كان جمال الطبيعة العجيب من حوله يعني له أنّ كلّ شيء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ممكن، وأنّه حين يبدع، يصبح سيّد نفسه ومالكَ قوّته.

التقط بضعة أصداف ودَسّها في جيبه. أرادها أن تكون ذكرى تشهد على ذلك النور وتلك الرمال، في تلك اللّحظة الرائعة.

سلك بعدئذ الطريق إلى كارّار. راحت حوافر حصانه تطرق الأرض مجدّداً. كان يشعر في أعماقه أنّ النهار الذي قضّاه في أحضان البحر قد أنعشه رغم ما أصابه من توتّر جرّاء النّقاش مع القبطان.

حين وصل إلى القرية استقبله جرس الكنيسة بدقّات الحزن، تماماً كما في المرّة السّابقة. تساءل إذا ما كان كاڤالينو هناك لاستقباله وأخذ الحصان إلى الاصطبل. لم يكن في السّاحة سوى الأولاد يلعبون لعبة التخفّي ويركضون وراء بعضهم البعض. لا شكّ أنّ كاڤالينو في المرعى الكبير مع فرسه البيضاء.

تقدّم وحيداً نحو الاصطبل فإذا بميشيل يركض نحوه تاركاً رفاقه في اللعب وهو يصيح: «انتظرني، أنا آت معك!» وضع الصبيّ يده بيد النحّات. مشيا على وقع خطوات الحصان. تأثّر مايكل من ملامسته بغتة تلك اليد الصغيرة الشديدة الدفء داخل يده. كان ذلك الإحساس شبيها بما يشعر به من يمسك بكلتا يديه عصفوراً صغيراً من أجل حمايته.

- إلى أين ذهبت اليوم مع حصانك؟

- إلى البحر.

- إلى البحر! يا لك من محظوظ! أنا لم أذهب إلى البحر قطّ...

- سوف نذهب معاً ذات يوم، إذا أردت.

ندم على اقتراحه فورًا. لكن يبدو أنّ ميشيل لم يسمع ما قيل، لذلك لم يُبد موقفاً وأردف:

- هل تعلم، أراد والدي أخذ رسمك كي يبيعه في المدينة، لكنّني أخبرته بأنّني أحرقته في المدفأة.

قهقه الطفل ضاحكاً قبل أن يضيف:

- غضب بشدّة. احمرّ بأكمله. سمعتهما يتحدثان عن بيعه، أخي وهو. عندئذ، خبّأته ولن أقول لأيّ كائن أين هو.

توقّف عن المشي والتفت إلى النحّات وقال بصوت رقيق:

- أريد أن أحدّثك عن أمّي.

- أعتقد أنّني لا أرغب بسماع أيّ شيء عن أمّك.

- ليس أمامك خيار، أنت صديقي.

- ما الذي جعلك تقول بأنّنا أصدقاء؟

- الطريقة التي أخذت بها يدك يدي.

جثا مايكل أنجلو ونظر مباشرة في عينيْ الصبيّ وقال له:

- ستحدّثني عن والدتك في مناسبة أخرى. اذهب للّعب مع الآخرين الآن، وخذ هذه.

أخرج من جيبه القواقع التي كان التقطها من الشاطئ، ووضعها في راحة يد الطفل المفتوحة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العطر

لم يكن النحّات قد أدرك بعد ما الذي اعتراه. شعر ببساطة، بمجرّد أن أغلق باب غرفته وراءه، أنّ شيئاً ما قد تحرّك في داخله، على نحو غير محسوس، حلّت فيه عاطفة طفيفة لكنّها مشوّشة وغائمة.

استلقى وغاص في اللّيل وفي أحلامه. استرخى بدنُه على إيقاع صوت خفيّ ظلّ يُنبئه بأنّ هذا الفرح العميق جدّاً كان موجودًا هنا دائماً، في متناول القلب.

استسلم بشيء من اللاّمبالاة غير المعتادة إلى نداء جرحه المضيء الذي لم يُلمس منذ وقت طويل، وها قد بدأ ينفتح في داخله.

من الشاطئ الساطع واليد الصغيرة الدافئة، وُلد عطر. أوّله غامض ومنعش. مزيج نافذ من الخزامى والورد السريع التبخر. تغيب الخزامى ويدخل السّوسن إلى حلقة العطور، ثم يسحبها كلّها في إثره، الواحد تلو الآخر.

كان ذاك العطر المدوّخ، عطر المرأة التي أراد مايكل أنجلو أن ينساها كليّاً، والتي حبس ملامحها وتنهّداتها داخل صندوق مدفون تحت شجرة كبيرة.

العطر، كأوّل ذكرى:

من حفرة صنعها البحر في الرمال
أخرج الطفل قوقعة بيديه الناعمتين
قرّبها من أذنه.
أراد أن يمسك الموج
ويجني زبد عطر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النار

كان اليوم التالي يوماً مُبهجاً. إذ أنّ الجدار الذي انتزعت منه عدّة كتل رخامية بدا واعداً على نحو خاصّ بما كشف عنه من صفاء رخامه وجودته.

«عِرق حليبيّ، لا تشوبه قطرة دم واحدة!» قال توبولينو متعجباً.

أظهر مايكل أنجلو الحمّاس هو الآخر. سيكون بوسعهم بكلّ تأكيد اقتطاع ما يكفي من الرخام لعدّة تماثيل. اقترح الحجّار على النحّات أن يحتفلا بذلك حول وجبة طعام لذيذة. فسارع إلى الموافقة، فمنذ علق عطر أمّه في أنفه، لم يعد يرغب بالبقاء وحيداً.

أثناء عودته من المقلع، اجتاز الساحة. رأى الأولاد يدورون في حلقات وهم يغنّون، بينما كاڤالينو مندمج في حديث هامّ مع ميشيل.

اقترب من المجموعة الصغيرة. كان كاڤالينو يحبُّ حول أولئك الراقصين وصهيلُه يرافق غناءَهم. أمسك ميشيل بيد مايكل على الفور، وأجبره على الجلوس إلى جانبه فوق درجات فناء الكنيسة الرخامية وطفق يحدّثه بنبرته الطّفوليّة المحبّبة:

- بما أنك لا تريد أن أحدثك عن والدتي، سوف أحدثك عن والدي.

- أتعلم، أظنّ أنّني لا أريد أن أعرف شيئاً، لا عن أمّك ولا عن أبيك.

ولكنّ ميشيل تابع حديثه وكأنّه لم يسمعه:

- بعد موت أمّي ببضعة أيّام، بقيت وحيداً في المنزل مع أبي. كان جالساً بالقرب من المدفأة، ورأسه بين يديه. ظننت أنّه نائم. دنوت وربّتُّ على كتفه. عندما نظر إليّ، انتبهت إلى أنّه كان يبكي. جثا على ركبتيه وانفجر ينشج باكياً بين ذراعيّ. مثل طفل. هو الآن الطفل! أتفهم؟

- أفهم جيّداً.

- كيف أشرح لك الأمر؟ كان ذلك موقفا مربكًا وعجيبًا. كأنّني خلعت في تلك اللّحظة بالذّات سترتي الصغيرة المصنوعة من جلد الخروف، وقرّرت ألاّ أعود إلى ارتدائها أبداً. هل تفهم؟

- أفهم جيّداً.

-أنت قلت إنّك تكره الأولاد. ولكنّي لم أعد ولداً!

داعب مايكل أنجلو شعر ميشيل وأجابه:

- كان عندي سترة مثل سترتك، وأستطيع أن أقول لك إنّه بمجرّد أن نفقدها، لن نعود لارتدائها أبداً.

ظلاّ صامتين للحظات، ثمّ قفز الصبيّ وعاد إلى اللّعب مع الآخرين. ونهض مايكل ليعود إلى غرفته. كانت النّسمة حارّة، تنفّسها بعمق وراح يمشي بتؤدة عندما لاقاه كاڤالينو.

-كيف حالك؟ - سأله النحّات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أنا على ما يرام، أقضي معظم أوقاتي في البرّية. وأنت؟
- بخير، شكراً.
- هناك شيء أريد أن أخبرك به.
- كلّي آذان صاغية.
- العطر، إنّه السماء المضطرمة.

ذهل مايكل أنجلو. نظر إليه وهمس:

- لماذا تقول لي هذا الآن؟ كيف عرفت؟

لكنّ كاڤالينو كان قد رحل من جديد وهو يصهل.

بقي مايكل أنجلو حائراً، عقدت الدّهشة لسانه. صحيح، علق العطر على أنفه ولم يتركه بعد ذلك. أماط اللّثام عن عاطفة حبّ مطَمئِنة. حبّ يطفح فؤاده به سروراً. مع ذلك، يخاف أن يتوغّل فيه أبعد ممّا ينبغي. كانت طريقه حتّى تلك اللحظة قد تحدّدت في ما يخصّ سرّ هذا الخيال الذي لا يقوى على التلفّظ باسمه.

شيء ما في أعماقه كان يقول له: عليك التريّث قبل أن تتقدّم أكثر. *العطر*، هو السّماء المضطرمة.

السماء المضطرمة، سبق له في حياته أن عرفها، وإن كانت اليوم دلالة على الغبطة، فإنّها في ثلاثاء الرماد من العام 1497، كانت رمزاً للجحيم. بينما كان يتسكّع في أزقّة كارّار الصغيرة ناسياً العودة إلى غرفته، عادت إلى ذاكرته صور المحرقة التي قادها ساڤونارولاّ.

كانت هناك إشارات تنذر بجنون حاشية البابا. مع ذلك، بلغت مسامع مايكل أنجلو، في زمن لورنزو دي ميديتشي، مواعظ ذاك

الذي لم يكن سوى كاهن في حاشية الأمير، ولم يكن الوحيد، إذ أنّ بيكو دي لاميراندولا كان يشاركه الحماس أيضاً.

لكن مع استلام ساڤونارولاّ السّلطة بعد الاجتياح الفرنسي في العام 1494، ازداد خطابه قسوة. لم يعد يثني على الطيبة، بل صار يشيد بالتقشّف والزّهد الذي يجعل كلّ تعبير عن الذات مرفوضًا.

ألبَسَ الشباب اللّباس الأبيض، وجعلهم يطوفون في المدينة من أجل أن يحضّ الفلورنسيين على المزيد من التقوى. رُصد الفنّانون، ومُنع العريُ وحوصر الفكر الحرّ. ضاقت الأذهان. وحلّ الخوف والريبة في النفوس. ما إن اكتملت الخطوة الأولى من الخطّة حتّى كان الفلورنسيّون على استعداد لمحرقة الأباطيل. الكلّ حلم بالمشاركة بها. وعلى حدّ قول ساڤونارولاّ: سوف تكون مهيبة، لا تُنسى. سوف يضيئهم النّور الإلهيّ الليلَ كلّه.

جاء ثلاثة مراهقين بحللهم البيضاء يدقّون على باب مايكل أنجلو.

«أعطنا شيئاً نطعم به النار! هاتِ العُراة الذين كنت تنوي رسمهم! سوف يحترقون. سيحلّ بهم أكثر ممّا سيحلّ بالآخرين».

من أين جاء بكلّ تلك الشّجاعة التي جعلته يشتمهم ويطردهم. الآخرون انصاعوا بطواعية أكثر لطغيان المحرقة، وسلّموا المجوهرات والأقمشة والملابس والكتب، سلّموا كلّ ما يمثّل الثراء في وجهه المتباهي البذخ، وكذلك كلّ ما ينزل بالنفس نحو عوالم أقلّ حياء من تلك التي تعظ بها الكنيسة.

في البداية قرر مايكل أنجلو أن يلزم منزله. لكنّه فيما بعد، لم يقاوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرّغبة في الذّهاب لمشاهدة المحرقة. غطّى رأسه ووجهه بوشاح طويل، واتجّه صوب ساحة السينيوريا.

عندما وصل كانت المحرقة قد بدأت، وواجهات المباني كلّها مضاءة. لم يكذب ساڤونارولاّ، كان الضّوء ساطعا حتّى ليُظنّ أنّ الوقتَ وضحُ النهار. آلاف الكتب تنتظر أن تنهشها ألسنة اللّهب. والمراهقون ذوو الملابس البيضاء يزعقون فرحاً وهم يلقون في النار الغنائم التي سلبوها من قلب البيوت.

كانوا مبتهجين، يضجّون وهم يلتقطون الأشياء الثّمينة ويلقون بها في النّار هاتفين: «ثمن الطهارة».

شعر مايكل أنجلو بأنفاسه تتقطّع من جرّاء ما رأى. كيف استطاعت خطب ساڤونارولاّ الطيّبة أن تنقلب إلى هذا الحدّ من الفظاعة؟ كيف كان بوسع الله أن يتركه يفعل ذلك باسمه؟

حرارة الجمر تحرق عينيه. تراجع واصطدم بأحد الرجال. تعرّف عليه بمجرّد النّظر في وجهه وقد غضّنته الدموع. إنّه ساندرو بوتيتشيلّي. كان يحمل تحت ذراعه عدّة لوحات ملفوفة. ألقى بها إلى النار وهو يزأر. لدى ملامستها لألسنة اللهب، تدحرجت وفرقعت. شاهد مايكل أنجلو كيف يتلاشى العريُ البهيّ لأولئك النسوة، ويطير دخاناً نحو السماء. بحركة يائسة، حاول اخراجها من المجمر، لكنّ المحرقة كانت شديدة التعطش إلى الجمال. ابتلعتها النار كلّها في طرفة عين. كانت تحتاج إلى المزيد من الشّعر والأجساد والأحلام والذكاء كي يسود غرور الجهل ويعلن عن نفسه سيّداً مطلقاً.

أمسك بوتيتشيلّي بذراع النحّات، كانت نظرته مرتاعة، صاح

دون أن يتعرّف إليه:

«لن أرسم عراة بعد الآن أبداً! أقسم أمام الله!»

تخلّص مايكل من القبضة المجنونة للرسّام وفرّ هارباً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجميلة والنّهر

عندما بلغ أبواب المدينة تذكّر أنّه مدعوّ من توبولينو فعاد على أعقابه بحركة سريعة ليغورَ مجدداً في أزقّة القرية. هناك، شاهد بعض الناس يجلسون على مقاعد أمام منازلهم. ولأنّ الرّبيع كان قد عاد طفقت الأحاديث تخرج من بين الجدران وتتّخذ طراوة الغسق المنعش. تُتقاذف الكلمات من وجه إلى آخر. من فم أدرد، إلى أذنيْ الجارة المُصيخة السمع.

كان مايكل أنجلو يستغرب من حاجة الآخرين الملحّة للتعبير عن أنفسهم، حاجتهم للكلام. فهو لم يشعر بذلك مطلقًا. كان يفضّل أن يحتفظ بمشاعره لنفسه، ولا ينطق إلاّ بما يتحتّم قوله. أي كلّ ما يتعلّق بحياته اليومية وما يقتضيه التّواصل مع الآخرين في شؤون العمل والمعاملات والمجاملات العابرة لقضاء الحاجات. أمّا عن مشاعره الصّميمة وعواطفه فلم يكن يفصح البتّة. وإن حدث وانفلت منه شيء من ذلك، فإنّه يكون على نحو أخرق يسيء للآخرين كما حصل في جنازة سوزانا. بسبب تلك العبارة اللّعينة، أصبح مجبرًا على التقرّب من ميشيل. لقد تورّط في شعور بالذّنب يجبره على الإصغاء إلى الصبيّ والابتسام له. لو أنّه صمت في ذلك

اليوم، لو أنّه عرف كيف يضبط نفسه، ما كان ليقبل أن يتحدّث إلى ذلك الصبيّ أبداً.

«وهذا العطر الذي عاد، والسماء المضطرمة» همس صوتٌ في أعماقه.

هزّ كتفيه. كان يردّ على التحيّات بكياسة، لكنّه لم يكن يضيّع الوقت بالوقوف والتحدّث معهم. في تلك اللحظة، أوشك أن يندم على قبوله دعوة توبولينو.

لماذا لم يؤثر البقاء وحيداً؟ ما الذي يتشاركه مع هذه العائلة؟ ما الذي يفهمونه من عالمه الداخلي؟ أحياناً يشعر لدى اقترابه من الآخرين بأنّ روحه اتّسخت. وها هو، وعلى الرغم من ذلك الشّعور الذي كان بمثابة اليقين عنده، يُوافق بسرور تقريباً على الذهاب إلى بيت توبولينو.

«لم أعد أعرف تماماً أين وصلت».

هو يملك من رجاحة العقل ما يكفي كي يدرك أنّ رفض اللقاء بالآخرين يعني الافتقار. ويودّ لو يستطيع الاكتفاء بذاته وبصحبة الأشخاص الذين يظهرون بغتة في ذهنه.

«البقاء وحيداً مع نفسي».

كان بإمكانه أن يكتفي بذلك ويقنع به لو امتلك من الشجاعة ما يتيح له الامتناع عن التّفكير فيما سيكون، أو الانشغال بالاستسلام إلى نداء الحنين إلى الماضي، وأن يكتفي من حياته بالحاضر فحسب.

سار بخطوات واثقة نحو منزل توبولينو. كان دخوله احتفاليّاً كما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في المرّة الأولى. حيّته كيارا والأولاد بتبجيل. اعتذر الحجّار عن هذه الرسميات وقدّم للنحّات نبيذاً أحمر فاخراً. على وقع رنين الكؤوس المقروعة انفرجت الأجواء. عاد الأولاد إلى ألعابهم والتفتت كيارا إلى الموقد تحرّك المعكرونة الموضوعة على نار خفيفة في صلصة حلوة مكوّنة من اليانسون والعسل وزيت الزيتون. وقد أُضيف إليها بشكل استثنائيّ لحم الخنزير المقدّد.

فور دخول مايكل أنجلو، علقت الرائحة الحلوة في أنفه. ها قد بدأ يقارب العالم. كانت ذكريات الماضي والنكهات تعلق به أيّما تعلّق ولا تتركه أبداً. وهو بدوره، لم يكن يعترض عليها أو يبدي أيّة مقاومة. فحتّى لمّا خامرته مخاوف من أن تأخذه تجلّياته بعيداً جداً، حسم قراره بألاّ يعرقل طريقها.

نظر إلى صحن الفخار الذي تختلج فيه المعكرونة. فابتسمت له الزوجة:

- كيف تمضي إقامتك؟

- جيّدة، شكراً.

اندهش من أنّه سرعان ما تابع:

- أثناء مجيئي إلى هنا، شاهدت أناساً يجلسون على مقاعد يتحدّثون، وتساءلت: أيّة رغبة تدفعهم بكلّ هذا الحماس إلى معرفة ما يجري عند الآخرين.

- هذا صحيح، طرحت على نفسي هذا السؤال مراراً. في الربيع تنطلق الألسنة، وبعد بضعة أشهر، تنتفخ البطون. وتستعيد الحياة سلطتها.

ضحكت كيارا، لكنّ مايكل أنجلو استطرد بجدّية:

- أنتنّ معشر النّساء، لديكنّ دائماً هذه الحاجة إلى الكلام. أثناء مروري في الشوارع، كانت النساء هنّ من يتكلّمن، أمّا الرّجال فكانوا يكتفون بالإصغاء.

ابتسمت كيارا وأردفت بنبرة هادئة:

- سوف أشرح لك ما الذي يجعلنا متقاربين: إنّه حمل الحياة وفقدانها في أغلب الأوقات. لا توجد في أيّ بيت من البيوت حولنا امرأة لم تفقد من أولادها ولداً أو أكثر. هنا بالذات، بين جميع الجالسين إلى مائدتنا، هناك ظلال أولادي الذين فقدت. ألم الأحشاء المزمن هذا، نحمله كلّنا. إنّه الرابط غير المرئيّ المسؤول عن دفع بعضنا إلى أحضان بعض للبكاء، ولكن أيضًا للبوح بمكنونات قلوبنا عبر الكلمات.

ظلّ مايكل أنجلو يراقبها باهتمام لافت وهي تتكلم. إنّها على حقّ. بمثل ذلك تمتلك النساء القدرة على تحدّي الحياة والموت.

بفضل أطباق الطعام والأحاديث، استمرّت السّهرة وحلّ السرور. لم يندم النحّات على مجيئه. شعر بأنّه في أحسن حال وهو محاط بهذه العائلة المُحبّة. في نهاية العشاء، طلب توبولينو من زوجته أن تغنّي لهم أغنية. قال لها وابتسامة تضيء وجهه: «غنّي أغنية من هنا، من الأغاني القديمة»

ذهبت كيارا إلى الغرفة الأخرى ثم عادت ومعها طبلة صغيرة. قالت وهي تستعدّ للغناء:

- هي الهديّة الوحيدة التي قدمها لي توبولينو. بعد زواجنا، لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكلّف نفسه ذلك العناء قطّ!

كانت الأفواه التي أضاءتها مصابيح الزيت حول المائدة قد أقفلت. فيما انفتح فم كيارا وطفقت راحتا يديها تضربان على جلد الطبلة المشدود.

راحت الجميلة إلى ضفّة النهر
تمشّط شعرها بحبور
اليوم يوم عرسها
الساعة التي انتظرتها طويلاً
في شعرها الكستنائي،
رشرشت أزهار بيضاء، كبياض بشرتها
رقيقة كرقّة روحها

راحت الجميلة إلى ضفّة النهر
بدأ الناس يصلون
قريبا يكون الموكب
«آن الأوان، آن الأوان!» قالت لنفسها
مسّدت ثوبها، ونظرت إلى انعكاس صورتها
«حبيبي لن ينسى هذا اليوم أبداً
آن الأوان كي أكون له إلى الأبد».
حبيبها اليوم يتزوّج من فتاة أخرى
تعرف الجميلة هذا، ولكن كي لا ينساها

أقسمت أن تتزوّج النهرَ.
يقترب الموكب والمزامير البهيجة
ها هم يصلون، ترمي بنفسها.

بينما حبيبها يعبر من فوق الجسر
رأى الجميلة تطفو بكل بياضها
أغمض عينيه وانقبض فؤاده
لكن فوق جفنيه المغمضين، انحفر إلى الأبد
عرس الجميلة والنهر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الظهور

بعد الأغنية، خدّر الصمت الوجوه. نظر الأولاد إلى أمّهم مذهولين وهي تضع طبلتها بين الأطباق والكؤوس.

كان توبولينو أوّل من تكلّم:

- ولكنّك غيّرت الكلمات!

- هذا صحيح، إنّها كلماتي.

تأثّر مايكل أنجلو من رهافة حسّ كيارا، المرأة غير المتعلّمة والتي تعبّر بكل رقّة عن عواطفها. نظر إليها وقال بتأثّر:

- كيارا، أغنيتك رائعة، وعلى وقْع كلماتك المبهرة هذه، سوف أطلب الإذنَ بالرحيل.

أُغلق الباب من ورائه مجدّداً، وألفى نفسه داخل الليل المظلم. كانت نوافذ البيوت مغلقة. انتقل في لحظة واحدة من دفء منزل توبولينو إلى بَرْد الليل في الأزقّة المعتمة. عند منعطف أحد الشوارع، لمح خيال رجل يسبقه ببضع خطوات. لم يوله اهتماماً، لكنّه تجمّد فجأة لهول ما رأى.

أنا لا أحلم، إنّه أندريا!

لومدّ يده، لتمكّن من لمس لباسه الكهنوتي. في سكون الليل،

ناداه مايكل أنجلو:

«أندريا، التفت! أنا هنا!!»

لكنّ الرّاهب لم يسمعه ومشى بسرعة.

«أندريا، انتظرني!»

تصلّبت ساقا مايكل أنجلو وكأنّهما مشلولتان. لم يعد قادراً على التقدّم.

«أندريا، إلى أين أنت ذاهب؟ إذا لم تكن أنت، فمن الذي كان على رخام المشرحة؟»

بدا له الرجل يتأهّب للانعطاف إلى زقاق مجاور.

«أندريا، لا تتركني!»

بذل جهدًا خارقًا حتّى تمكّن من تقديم ساقٍ على الأخرى وتحريك عضلاته ومن ثمّة اللّحاق به. كاد يدركه، لكنّه حين أوشك على تجاوزه، اختفى.

لبث وحيداً في الزّقاق المظلم، يائساً من أنّه فقد مرّة أخرى مَنْ ظنّ أنّه عثر عليه. سقط على ركبتيه، وفجأة، راح يبكي. منذ كم سنة لم يطلق العنان لقلبه على هذا النّحو؟

مايكل أنجلو في الشارع الموحل، يداه تغطيان وجهه. يكاد يستسلم لرغبة جارفة في الضّحك. على إثر انتباهه إلى هيأته المضحكة وهو جاثٍ على ركبتيه يتمرّغ في الوَحل والدّموع. أدرك أنّ طيف أندريا لم يكن سوى نتاج لخياله، لكنّه كان مغموراً بعاطفة يعجز عن تسميتها. هل كانت أغنية كيارا المزوجة بعذوبة هذه الليلة الغريبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في كارّار هي من أيقظ الخيالات؟

استوى على قدميه، وما كاد يشرع في المشي حتّى جفّت دموعه. كان يريد أن ينام. ويتمنّى ألاّ يرى أثناء نومه حُلمًا وألاّ يتذكّر شيئاً. يودّ لو أنّ أندريا يتركه ويعود ويستقرّ بين أهله.

وبينما هو مستلقٍ ويهمّ بإطفاء شمعته، وقع بصره على الإنجيل الصّغير. قاوم بصعوبة الرّغبة في أخذه بين يديه. كان في حجم راحة اليد أو أكبر قليلا. وغلافه الجلديّ زلق لكثرة ما أمسكته الأيادي وأحبّته. لم يجرؤ على لمسه. شوّشت تلك الحركة ذاكرته وأربكتها. وفجأة ظهر أندريا من جديد:

«خذ هذا الإنجيل! لقد أحببته حبّاً جمّاً، داعبته، آمنت بكلّ كلمة من كلماته. بيأس أحياناً، ولكنْ بإيمان قاسيت فيه الأمرّين طويلاً حتّى شاهدتك أنت. كنت تفتح الأجساد، تفتح الموت. بدوت بالنسبة إليّ كأنّك تمتلك سلطة لا حدود لها. كان ذلك فوق مستطاع الإنسان تقريباً».

«أندريا، عد من حيث أتيت! لا تتركني أواصل الظنّ بأنّك هنا. أبعد جسمك عن جسمي. أبعد أصابعك عن أصابعي. ولتذهب معك ذكريات جسدٍ لم ألمسه قطّ، بل اكتفيت بأن أجريت نظرتي عليه فوق الرخام لا غير. أندريا، أنت الجمال الذي لن أبلغه أبداً بإزميلي. أنت الآية الأخيرة على تفوّق الطبيعة على فنّي. رؤيتك تذكّرني بعدم جدواي».

- خذ الإنجيل، إنّه لك.

- اتركه يسقط.

- مايكل أنجلو، لماذا تبكي؟
- اتركني! تخلَّ عني كما فعلت هي!
- مايكل، هي لم تتخلَّ عنك. لقد ماتت مثلي.
- إليكما عنّي، أنت وهي! لكما الجسد النّورانيّ نفسه. جعلتماني أعمى تجاه الآخرين! وأريد أن أبقى هكذا.

صمت النحّات برهة ثمّ صرخ :

- هذه قوّتي الوحيدة، أتسمع، الوحيدة!

قرعت ماريا الباب وهتفت من ورائه:

- هل كلّ شيء على ما يرام يا معلّم؟
- أجل، ماريا.

سقط الإنجيل الصغير على الأرض. لم يعد أندريا هنا. انتظر بضع لحظات أخرى، ثم نفخ على شمعته. عاد إلى النّوم، النّسيان، نحت الأحياء والأموات المحتشدة في مخيّلته، تعرية الحجر دون أن يترك في داخله سوى قلبه النابض.

نام منهكاً. لم يعكّر أيّ حلم تلك السكينة التي غرق فيها، ولا أدنى تنهيدة أو صلاة. لا شيء سوى تنفسّه المنتظم تهدهده رطوبة الليل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القاقوم(*)

في صباح اليوم التالي، استيقظ مايكل نشيطاً معافى. لم ينسَ ما رآه عشيّة أمس. لكنّه عوضاً عن الشّعور بالشّلل كما كان حاله قبل بضع ساعات، اجتاحته طاقة جديدة تحثّه على النهوض في ساعة مبكّرة ليلتحق بالمقلع.

ابتلع مغليّ الدّجاج والخبز اللذين أحضرتهما ماريا بنهم، وخرج. أجراس الكنيسة تدعو إلى القدّاس. عبر الساحة دون أن يعير انتباهاً لأولئك المتجّهين إلى الكنيسة بخطى مستعجلة. كانت أنتونيلاّ شقيقة ميشيل من بينهم. لقد سمع صوتها يصرّ وراءه:

«أمازلت هنا، أنت!»

تردّد لحظة، ثمّ همّ بالتوقف للردّ عليها، لكنّها استأنفت كلامها:

- كيف يمكن للبابا أن يثق بك في حين أنّك تجدّف في بيته؟

في اللحظة التي قرّر فيها أن يتجاهلها، استلم كاڤالينو الكلام عنه:

- أيّتها القاقوم الصغيرة، لماذا تشتمينه هكذا؟

- لقد هاجم أخي الصغير، والغبيّ كان أوّل من صفح عنه. فضلاً عن ذلك، هو لا يتحدّث إلاّ عنه: مايكل أنجلو قال،

(*) حيوان طويل الذيل من فصيلة ابن عرس، ذو فراء أعلاه بني محمرّ وأدناه أبيض.

مايكل أنجلو فعل...

- لا أظنّ أنّه على هذا القدر من الخبث الذي تدّعينه. احذرِي! لا تهاجميه كثيراً، بإمكان أنيابه أن تطحن عظامك الصغيرة.

- كفاك ظنّاً بأنني قاقوم!

- هذا صحيح! معك حقّ. أحيانا أرجّح أن تكوني سنسارا...

لمّا ابتعد مايكل أنجلو عن السّاحة، ضاع صوتهما في صخب قرع الأجراس. فيما ظلّ هو يردّد: «قاقوم».

ذكّره اسم الحيوان بلوحة لليوناردو دافنشي. لم يرها، لكنّ أحد تلامذة المعلّم، لدى مروره بفلورنسا، أراه النّسخة التي رسمها في منجم الرصاص. لم تكن السيّدة الشابّة تشبه أنتونيلاّ، إلاّ أنّ القاقوم ذا الخطم الطّويل الحادّ الذي كان بين ذراعيها، بدا له شبيهًا بسحنة الفتاة بارزة التقاطيع. أغوته يد الفتاة بشكل خاصّ. يد ناعمة وقويّة في الوقت ذاته. تكاد تكون عملاقة مقارنة بباقي الجسم، وأصابعها تداعب الحيوان وتوحي بأنّها تحميه.

يُد، الأيدي.

كانت يداه المهتاجتان تهيّجانه. لذلك لم ينسَ أن يأخذ أزاميله ومطرقته قبل أن يغادر الغرفة.

«لا بدّ من إيجاد صخرة صغيرة، فرقعة الرخام والنّحت وحدهما يجعلانني أشعر بأنّني مفيد. بكلّ بساطة، لا شيء غيرهما يملك أن يشعرني بالحياة».

حثّ خطاه. حيّا على الطريق أولئك الصّاعدين إلى المقلع. لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتوقّف للحديث معهم، كان يتقدّم بعزم. وما إن صار في الأعلى حتّى توجّه إلى توبولينو فاستقبله بدهشة:

- إيه يا صديقي، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- توبولينو، جِدْلي قطعة رخام صغيرة من فضلك، ولتكن جميلة!

- يداك تحكّانك؟ أليس كذلك؟

- بالضبط.

- اذهب وانظر أبعد قليلاً. يوجد كومة من الفُتات، قطع رخام صغيرة جدّاً أو قطع لا لزوم لها.

لم يُضع مايكل أنجلو وقته. بعد أن شكره، ذهب وقرفص بالقرب من كومة الحجارة. وقع اختياره على قالب حجريّ لا شكل له، ولا يتجاوز حجمه رأس إنسان. حوافّه بارزة ومثلّمة في كلّ الاتجاهات. غير أنّ مايكل لا يخطئ. كانت حبيبات الحجر فائقة النعومة، وليس فيه أي عرق يعكّر نقاءه.

يد السيّدة الممسكة بالقاقوم هي الأخرى لم يكن يشوب بشرتها أيّ عرق، تكاد شفافيّتها تنبض خفية بالحياة. ثمّة يد يرغب بنحتها فعلاً. ليس يد السيّدة، إنّما يد رجل، رجل واحد: أندريا.

«يدك أنت، تلك التي أوشكتُ أن ألمسها البارحة». قال مايكل أنجلو وهو يختطف قطعة الحجر قبل أن يذهب ويجلس بالقرب من دوائر الخشب المستخدمة في إنزال الحمولات.

هناك، ركّب ارتجالا طاولة صغيرة ليعمل عليها. وضع عليها الحجر. ودون أن ينتظر أكثر جلس قدّامها وشرع في العمل.

ألهبت يد أندريا ذاكرته. قطّع الرخام سريعًا بإزميله ذي الأسنان الأربعة. تجمّع من حوله بعض الحجّارين وقد أثارهم الفضول.

«لم أرَ في حياتي أحداً يعمل بهذه السرعة».

«كأن الرخام يلين تحت إزميله..».

«هذا لا يحدث معنا البتّة!»

لم يكن مايكل أنجلو يصغي إليهم لفرط انشغاله بما هو بصدده، كان تركيزه التام على حركاته حتّى يمنح الحياة ليد أندريا.

«ماذا تظنّ أنّه يصنع؟»

«لا أعرف، لكن، كأنّها أصابع».

ابتعد الرجال تاركين مايكل أنجلو لعمله.

بسرعة كبيرة، ظهرت اليد. واقفةً على شيء ما. وبعد عدة ضربات، ارتسم الإنجيل الصغير. تغطيه راحتها وتحميه بالرقّة نفسها لتلك التي كانت تداعب القاقوم.

«أرأيت يا أندريا، بإمكاني أن أجعلك بالقرب منّي متى أردتُ».

لم يكن مايكل يشعر بأيّ حنين، أو بأيّ حزن. كان سعيداً لوجوده هنا. ينحت، يملّس، يصقل، مستسلماً للانخطاف إلى كلّ ما يتخّذ شكلاً، إلى كل ما يتحوّل. من يده النابضة بالحياة، تولد يد ميّتة لشخص آخر. يدٌ، سجينة المرمر، دخلت عنوة عالم الجماد السرمديّ.

مضى النّهار دون أن يلحظ ذلك. لم يتوقّف إلاّ بعد أن اكتمل التمثال. عندما وصل توبولينو في نهاية فترة ما بعد الظهر، لم يكن قد أكل أو شرب بعد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

-«سوف تقتل نفسك وأنت تتعرّق هكذا».

-« ها قد أنهيت».

ألقى الحجّار نظرة ملؤها الإعجاب على اليد التي اكتشف وهتف:

«إنها رائعة!»

«إنّها لك. أقصد لكيارا ولك. سيكون لديك هديّة تقدمها إليها..».

الآن، وقد اكتملت المنحوتة، لم تعد تعني له شيئاً. كان يكفيه أن يشعر لبضع ساعات أنه سيّد الرخام كي يستعيد الأمل، كي يتحقّق من أنّ جسمه وذهنه ما يزالان على أهبة الاستعداد.

سأله توبولينو:

- ماذا تمسك هذه اليد؟

- كتاب أغانٍ كلماتها مبتكرة.

الزّيارة

بعد بضعة أيام، بينما كان مايكل أنجلو في المقلع يتحدّث إلى قاطعي الحجارة عن حجم الكتل الرخامية اللاّزمة كما تصوّرها، جاء أحدهم وربّت على كتفه. التفت فإذا هو مساعده.

- آسف على وصولي متأخراً هكذا يا معلّم، لكننا استُبقينا في روما وكانت رحلتنا أطول من المتوقّع.

كان مايكل أنجلو قد نسي وجود ماركو. أجاب بلهجة سئمة:

- من تعني بـ: «نحن»؟ هل أنتم كثر؟

- أراد البابا أن آتي مع مرافَقة.

- حريّ بك الإقرار بأنّك وجدت عذراً كي تصطحب امرأة.

- هناك ثوب فعلاً في هذه القصّة، ولكن ليس ما ظننته. انظر ورائي!

كان الثوب في الواقع، ثوب كهنوت، وانفجر مايكل أنجلو ضاحكاً:

- ماذا يفعل هذا هنا؟ كان الكاهن التائه بين الرخام والأغبرة البيضاء سقيماً شاحباً، محنيّ الظهر لفرط ما درس النصوص المقدّسة في مكتبة الڤاتيكان وعاشرها. بدا كأنّه يعتذر عن مجيئه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى هناك.

دنا منه مايكل أنجلو ولم يتوانَ عن استفزازه:

- أخطأت المكان، لا يوجد كنيسة هنا.

حين لاحظ ارتباك الرّجل رقّ قلبه، فاستدرك:

- يبدو لي أنّ البابا هو من أرسلك. ما هي آخر أخبار روما؟

- أرافق ماركو فحسب. لا أعرف شيئاً آخر.

توجّه الشاب إلى مايكل أنجلو بحماس:

- يا معلّم، أنا أريد أن أكون مفيداً!

- حسن جداً، ولكن الأمر الأكثر إلحاحاً الآن، هو اصطحاب كاهننا العزيز إلى المدينة. انتظراني هناك!

كان الكاهن ميّالاً إلى العناد على خلاف ما يرتسم على ملامحه. لذلك عارض قرار المعلّم بحزم:

- مستحيل، طلب منّا البابا أن نبقى بقربك!

- بالقرب منّي أو من ماركو؟ ثمّ إنّ كلمة «مستحيل» لا وجود لها في قاموسي، ولا أعترف بها سواء تعلّق الأمر بي أو بالآخرين! ماركو، اذهب لرؤية توبولينو، وأنت افعل ما تشاء!

ثمّ استدار ناحية قاطعي الحجارة وهمس بتبرّم:

- أشعر بأنّني لن أحتملهما لمدة طويلة...

لم يكن يحبّ أن يكون لديه تلاميذ، رغم أنّه هو نفسه درس في محترَفات تزاحم فيها العديد من المتدرّبين. لكنّه لم يشعر قطّ بالرغبة في أن يكون متبوعاً، ومرصوداً. مع ذلك، كان يعتبر أنّ عبوره عند

يرلاندايو وبيرتولدو في فترة شبابه، قد ساهم بشكلّ واضح في تعزيز مهارته. كان يحمل الأساسيّ في داخله مسبقاً، وهذا الأساسيّ لا يُكتسب بالتعلّم مُطلقًا.

أمّا ماركو فذو موهبة لا تُنكر، وكان قد حاول اللقاء بالمعلّم مرّات عديدة خلال عدّة أشهر في روما. ولم تذهب محاولاته وصبره سُدى، إذ وافق المعلّم، ذات يوم، على رؤيته. استقبله للحظات ولكنّه بيّن له بلطف أنّه يصعب عليه تمكينه ممّا يريد في الوقت الحالي، واعدًا إيّاه بأن يكون له ما يحبّ حين يوافيه في كارّار. ثمّ نسي الأمر. حدث ذلك دون أن يضع في اعتباره ذاكرة ماركو وإصراره.

ظلّ مايكل أنجلو يراقب الكاهن بطرف عينه. كانت أهداب ثوبه الكهنوتي معفّرة بمسحوق الرخام. ولمّا انزوى بالقرب من كومة الحجارة المفتّتة وبدأ يصلّي. هزّ النحّات كتفيه وهمس هازئا:

«لك أن تستمرّ في صلاتك، طالما تركتني أعمل».

لم يعد بوسعه أن يخفي مزاجه العكر فنبّه ماركو قائلاً:

- أولاً، أنا لا أحتاج إلى أيّ نوع من المساعدة. ثانياً، ليس عليك سوى مراقبتي. أمّا إذا لم تفهم فلا تسألني أبدًا. من المفروض أنّ الإجابات في داخلك. وإذا لم تجدها، فمعنى ذلك أنّها غير موجودة فيك. لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً للآخر. لا شيء. مفهوم؟ لا تطمع إذن في أن تتعلّم منّي شيئاً بشكل خاصّ. أغفر لك وجودك هنا، هذا كل ما عندي وباختصار. هل هذا واضح؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تمتم ماركو:

- لكنّني قمت بكل هذه الرحلة كي أتّبع تعليماتك...

- لا تزعجني، واسرق كل ما تستطيع.

- «أسرق»، كيف ذلك؟

- هذا ما كنت أخشاه، أنت لا تفهم...

عند هذه الكلمات، رحل تاركاً ماركو فاغرًا فاه.

على الرّغم من الوصول المباغت، كانت أعمال مايكل أنجلو تمضي قُدماً كما تمنّاها: اختار ربع الكتل الحجرية اللازمة للقبر، وِفاقه مع الحجّارين مثاليّ، فضلاً عن أنّه مسموع ومحترم لمعرفته الواسعة وخبرته. لكنّه باستثناء العلاقة المغايرة التي حاكها مع توبولينو، لم يكن يصادق أحداً.

انتهى النّهار وبقي النحّات طويلاً بعد الآخرين. كان يريد أن يستغلّ الضوء القرميدي للغسق. الضوء المتوهّج فوق الجدران البيضاء لمنحدرات الجبل. ولكنّه كان يريد على الأخصّ أن يجعل ماركو والكاهن يندمان على مجيئهما. لم يوجّه إليهما الكلام مطلقًا. تركهما وحيدين يواجهان عدم جدواهما. عندما قرّر أخيراً أن يذهب، كذب عليهما بوقاحة:

- أحياناً أنام هنا، لفرط انشغالي بالرخام. فضلاً عن ذلك، هذا ما سأفعله غدًا مساءً بلا ريب، وأدعوكما لمرافقتي.

الكاهن الذي ظلّ على امتداد فترة ما بعد الظهر يتعرّق تحت حرارة الشمس رفض الدعوة فوراً:

- أشكرك، لكني سوف أبقى بالقرب من كاهن كارّار، صديقي الذي أكرمني وأحسن استقبالي، ولا أريد أن أسيء إليه.

اطمأنّ مايكل أنجلو إلى جواب الكاهن. ثمّ التفت إلى مرافقه وقال بنبرة استفهام ماكرة:

- وأنت يا ماركو؟

- مع كل احترامي يا معلّم، أظن أنّك تريد أن تتخلّص منّا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجاسوس

أمام ساحة كنيسة كارّار، استأذن الكاهن من الرجلين قائلاً لهما إنّه سيوافيهما يوم الغد في المقلع. أمّا ماركو، وكان يُقيم في غرفة معتمة تحت سقف ماريا، فتابع طريقه مع النحّات. انضمّ إليهما ميشيل، وقال لمايكل وهو يشدّ كمّه:

- تعال، مرّ وقت طويل لم نتحدث فيه!

- ليس هذا المساء يا ميشيل، أنا تعب، ربّما يكون ذلك غداً.

- هل تعدني؟

- نعم، أعدك.

بينما كان الصبيّ يشكره، تساءل النحّات: كيف وعدتُه بهذه السهولة؟

عندما وصل إلى باب غرفته، أخبر ماركو وقد ظلّ يلازمه على امتداد الطّريق بأنّه يرغب في تناول العشاء في غرفته، وبمفرده. وفي محاولة للتّخفيف من حدّة الموقف أعلمه أنّه يمكنهما اللّقاء صباحَ اليوم التالي، عند تمام السابعة أمام الكنيسة.

- حسناً يا معلّم. أتمنّى لك ليلة هانئة.

أغلق مايكل الباب وراءه، واستند إليه لبضع لحظات.

«لماذا لا يتركونني وشأني؟»

كان الإنجيل الصغير ما يزال فوق المنضدة إلى جوار الشمعة المطفأة.

«أندريا، متى ستعود لرؤيتي؟»

لم يكن يفهم البتّة سرّ حاجته الدائمة للبقاء وحيداً، ولا لماذا كان عدم التفاهم بينه وبين باقي العالم يطمئنه، بل ويحميه.

أحضرت له ماريا عشاءه. أكل القليل منه بلا رغبة تُذكر، شعر بحاجة إلى الشّراب فسكب في كأسه شيئًا من النبيذ الأحمر. بعد بضع كؤوس أحسّ بأنّ جدران الغرفة بدأت تتهادى. جعله السُكر يتمتم بشذرات جُمل، بل ودفعه إلى الضحك ساخراً من حين لآخر دون سبب. راح يقلّب صفحات دفتره الصّغير، سقطت رسالته الأولى إلى غويدو على الأرض فالتقطها.

سوف أكتب لك قريباً، قريباً جداً.

تتالت الأقداح بحركة آليّة إلى أن صرعه النعاس فوق كرسيّه ونام على الفور. كان رأسه يترنّح بينما تهاجم ذهنه صورة، صورة واحدة، تمثاله «الشفقة» في روما. رأى نفسه في مقام العذراء، يجلس مرتدياً الثوب الواسع نفسه، ويعتمر الغطاء البتولي. وبين ذراعيه.. لا ليس المسيح المستسلم، بل أندريا بشحمه ولحمه. ميّت أو نائم، لا يعرف على وجه الدقّة. بالمقابل، ما هو موقنٌ منه أنّ أندريا كان عاريًا تماماً. الغطاء الذي كان يستر عري المسيح قد اختفى، وهو متجمّد في وضعيّته تلك، يلتهم أندريا بعينيه، ولا يقوى على ملامسته أو ملاطفته، مكتفيًا بالنظر إلى جماله الذكوريّ بكلّ جلاله وروعته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت عاطفته جيّاشة حدّ ملامسة أحشائه.

ممسوساً بحالة الوجد العشقيّة تلك، أيقظه وعيه مجفلاً. ومحا في لمحة رؤياه الشهوانية. أغمض عينيه في محاولة لاسترجاعها، لكنّ الصّورة الخاطفة للفردوس المتجسّد كانت قد اختفت، تاركة وراءها -كذكرى وحيدة- أواراً من الشوق يمتزج فيه الخمر بالسعادة.

بعد لحظات قليلة، تهاوى فوق سريره مصالباً ذراعيه ووجهه مدفون في الوسادة. بقي على الوضعيّة نفسها حتى الفجر، إلى أن أيقظه شعاع مضيء.

جلس مايكل أنجلو، وآلام رأسه تشقّ جمجمته فتذكّره بتهتّكات البارحة. كان الكرسيّ بجوار الطاولة على الأرض. لا بدّ وأنّه قلَبه وهو نائم. القنّينة فارغة والكأس،غير البعيدة منها، كذلك. ومن حسن حظّه أن كان إبريق الماء ما يزال مملوءاً. صبّ القليل منه في يديه وفرك به وجهه جيّدا. وبمجرّد أن لامسه الماء بدأت حالة الخدر التي كانت تُغرقه بمغادرة جسمه تدريجيًّا، خرج من حالة اللاّوعي ليعود ويندمج بتفاصيل النهار. أما بالنسبة إلى أندريا، فقد غاب في الغور العميق لذاكرته حاملاً معه خلاعته.

دنا من النافذة. وترك الشمس تجتاح كلّ جسده.

شرب جرعات ماء كبيرة من الإبريق مباشرة، وأكل الخبز اليابس المتبقّي على الطاولة. إنّه الآن مستعدّ ليقطع ساعة السّير المبكّر باتّجاه المقلع. لن ينتظر ماركو. قال في نفسه محاولاً أن يبرّر اختياره:

«ليس عليه سوى موافاتي إلى هناك بمفرده».

أثناء مروره من أمام الكنيسة، لاحظ أنّ البوّابة كانت مواربة. مع

أنّ المبنى عادةً يفتح أبوابه بعد هذا الوقت. أثاره الفضول فدخل. كان الكاهنان -كاهن كارّار وذاك الذي وصل حديثاً من روما- غارقين في نقاش محتدم، عندما لاحظ الكاهن الضيف وجود النحّات قال:

- جئنا نصلّي أبكر من المعتاد. شاركنا الصلاة!

- لا، شكراً، أنا ذاهب إلى المقلع.

- سأذهب أنا أيضاً.

- لا تستعجل.

في منتصف الطريق، انتبه مايكل إلى أنّه نسي دفتره الصغير مع النماذج الأخيرة التي كان يعتزم إطلاع توبولينو عليها. قرّر معاودة النزول إلى القرية، ولم يكفّ عن لعن نفسه طوال الطريق.

لحظة كان يهمّ بفتح باب غرفته، أوقفه شعور مسبق. أدار مقبض الباب برفق وألقى نظرة إلى الدّاخل. أبكمه ما رأى. كان الراهب الروماني هناك، جالساً إلى المائدة، يقلّب صفحات دفتر نماذجه الصّغير. تردّد النحّات لحظة ما بين لكمه أو الصّراخ في وجهه، لكنّ الصرخة كانت أسرع من قبضته.

- ماذا تفعل هنا؟

أجفل الكاهن وامتقع لونه.

- أرافق ماركو...

- كفّ عن قول ذلك! لم أعد أرغب برؤية وجهك، ولا ثوبك الكهنوتي!

تنبّه ماركو للضجيج فنزل السلالم مسرعاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وأنت، هل كنت على علم؟ أنت أيضاً جاسوس للبابا؟
- كلا يا معلّم، ما الذي يجري؟
كان مايكل أنجلو قد احمرّ من الغضب.
- ارحلا عنّي أنتما الاثنان! لا أريد أن أسمع أيّ حديث عنكما نهائياً!

الأنف

رحل الكاهن وماركو، لم يكن أمامهما خيار آخر. حاول الفتى جاهداً تبرير عمله، توسّل إلى المعلّم، لكن ذلك لم يجدِ نفعاً. لم يكن مايكل مستعداً للاستماع إليه أو إلى رفيقه أو إلى أيّ شخص كان. أوسعهما شتمًا وهو يرافقهما حتى أبواب المدينة كي يتأكّد بنفسه من عدم بقائهما لمواصلة التجسّس عليه. لم يليّن وجهُ ماركو الشّاحب قلبَه. قدّم له فضول الكاهن عذرًا لطردهما. سوف يعود وحيداً من جديد. أليس ذلك كلّ ما يتمنّاه؟ كم كان يكره أن يستشيط غضبًا.

لدى عودته إلى السّاحة، جلس منهكاً على درجات سلّمٍ بفناء الكنيسة. تساءل ورأسه بين يديه عمّ عساه يكون ذاك الذي يبحث عنه الكاهن بالتّحديد. أهو مجرّد فضول شخصيّ، أم أنّ البابا ذاته هو من كلّفه بالنبش في دفتره الصغير. أتراه قرأ رسالته إلى الأخ غويدو؟ هذا الاحتمال لحاله جعل غضبه يستشيط مجدّداً.

- صباح الخير، لا تبدو الأمور على ما يرام؟

التفت نحو مصدر الصّوت فإذا بميشيل يبتسم له.

- أجل، الأمور ليست على ما يرام! وهذا بسبب الآخرين وبسببك أيضاً!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يمتعض الولد، بل اقترب منه أكثر وجلس إلى جانبه.

- اليوم دورك أنت في الكلام.

هزّ مايكل أنجلو رأسه ناحية الطّفل وقال بنبرة باردة لا تخلو من سأم:

- ليس عندي شيء على الإطلاق لأقوله لك.

- لا بأس، أجابه ميشيل. يمكننا البقاء إلى جانب بعضنا البعض فحسب.

بعد لحظة طويلة، أحسّ بنظرة الولد ترصده.

- لماذا يبدو أنفك مكسوراً إلى هذا الحدّ؟ أشعر بأنّه مسحوق.

- ذلك بسبب نحّات أحمق اسمه بييترو. في أحد الأيّام، بينما كنّا نتحدث، لكمني قبل أن أتداركه فأصاب أنفي. ما زلت أذكر الصّوت الذي أحدثته اللّكمة داخل رأسي. طقطقة أعقبها بسرعة البرق ألم شديد، ثمّ تذوّقت طعم الدمّ وقد سال غزيرا وملأ فمي. طعم أقرب إلى الحلاوة. أظن أنّ بييترو كان غيوراً.

- غيوراً منك؟

- من موهبتي.

- ما معنى الموهبة؟

فكّر مايكل أنجلو.

- هي شيء موجود في داخلنا ونشعر بضرورة التّعبير عنه.

لم يكن ميشيل متأكّداً من أنّه فهم، لكنّه أومأ برأسه متظاهراً بالفهم. فتابع النحّات:

- هل تعلم أنّه طُرد من فلورنسا بسبب ذلك؟

- غير معقول!

بدأ ميشيل يضحك بمرح، وراح يقلّد وهو واقف المشاجرة بين الرجلين. صاح بصوت حادّ محاكيًا أطوار المعركة:

- إليك، خذ هذه! واحدة ثانية! لقد جرحتني! سوف يأتي الحرّاس ليطردوك من المدينة!

بالغ بالقسوة في تمثيل الرّكلات. ولكثرة ما أشار بيديه، وقع على الأرض وهو يقهقه. كان سروره مرحاً، مفعماً بالعفويّة إلى درجة أنّ مايكل أنجلو لم يستطع كبح نفسه عن مشاركته الضّحك. نسي في غمرة المرح الكاهن وماركو، وبييترو ولكمته التي شوّهت وجهه. والقبح الذي يشعر به منذ تلك الحادثة كما لو أنّه لباس غريب مضحك يثقل كاهله. انطفأ غضبه دون أن ينتبه.

- تعال بقربي، سوف أحكي لك حكاية أخرى عن الأنف، مضحكة مثل الأولى.

صفّق ميشيل فرحًا. عاد وجلس إلى جانب النحّات.

- حدث هذا منذ بضع سنوات، في المدينة نفسها، فلورنسا، وبها توجد ساحة أكبر من هذه بكثير. كانوا قد طلبوا منّي منحوتةً، تمثالاً ضخماً لداوود، مرتفعاً بقدر طول ثلاثة رجال. ما إن انتهى حتى حملوه إلى تلك الساحة الكبيرة. بعد أن ركّزوا التمثال، كان هناك بعض التشذيب عليّ القيام به. كنت في أعلى الصقالة عندما مرّ بي حامل الراية، رئيس المدينة. نظر إلى التمثال وطلب منّي النزول ليعطيَني رأيه. كان يرى الأنف كبيراً جداً. سأقول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لك ماذا فعلت بعد ذلك: صعدت مجدّداً إلى الصقالة ومعي إزميلي. في الأعلى، وبينما كنت أتظاهر بإعادة نحت الأنف، رحت أنفخ غبار الرخام فيعتقد أنّني أزيلها. بعد مضيّ وقتٍ قصير سألته عن رأيه، أتعلم ماذا كانت إجابته بكلّ غباء؟ علماً أنّني لم ألمس شيئاً، لقد قال بكلّ ثقة: «الآن صار يعجبني أكثر، لقد منحته الحياة».

قهقها ضاحكيْن في الوقت ذاته. كلّما نظر أحدهما إلى الآخر، ازدادت ضحكاتهما جنوناً، وباندفاع مباغت، مدّ النحّات ذراعه كي يضمّ الطّفل وقد احتمى به. حينئذ استسلما إلى دفقٍ من المرح المعدي لم يجعلهما متواطئين فحسب، بل حملهما بعيداً عن حيرتيهما وآلامهما.

التّـقدمة

غادر النحّات والطفل ساحة الكنيسة تاركيْن وراءهما الدرجات التي استقبلتهما مرارًا. كان على ميشيل أن يعود إلى بيته، أمّا مايكل فقد تأخّر على الحجّارين. لوّح كلّ منهما إلى الآخر حين اتّسعت المسافة بينهما.

كان النحّات يشعر في قرارة نفسه بالامتنان للّحظة السعيدة التي جعلت خطواته نشيطة وهي تقطع الطّريق إلى الرخام. أيضا كان يعلم أنّه لن ينسى ضحكة الطفل، فهو يحملها معه ويكاد يسمعها تصدح رغم غيابه. على درب المقلع، استمتع بومضات ذاكرته: وجه ميشيل بعينيه الواسعتين، وهو ينتظر نهاية الحكاية. كانت لحظات من السّعادة الصّافية أحاطتهما بنعومتها وعذوبتها ولم تتلاش رغم انقضائها.

تغيّرت ضحكة الطفل بغتة ولم يكن قد قطع نصف الطّريق بعد. كل شيء فيه تجمّد. كاد قلبه يتوقّف عن الخفقان. ما عادت الضّحكة التي يسمعها ضحكة ميشيل، إنّما ضحكة امرأة. تلك التي ما يزال عطرها عالقاً عند ثلمة أنفه، ملأت ضحكتها أذنيه ثمّ انتشرت لتغمر كلّ كيانه. التفت وصاح:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أين أنتِ؟»

هِبة الضحك، ذكرى ثانية.

وفيما خطواته تحمله

إلى قلب الجبل

شرد ففاجأه الصدى

مقهقها

أهداه نشيد العطر

وضحكة النّرجس

كازّار في 3 حزيران 1505

الأخ غويدو، خادم الربّ،

لا يسعني إلّا أن أفصح عمّا دفعني إلى الكتابة إليك، وأنا على يقين من أنّ هذه الرسالة ستنتهي مثنيّة داخل مفكّرتي، وأنّك لن تقرأها. مع ذلك، لك وحدك أريد الكتابة، وليس لأيّ شخص آخر. ولأكن صريحاً تماماً، أنت الصلة الأخيرة، وربّما الوحيدة التي تربطني بأندريا.

يجدر بي القول بداية إنّ رسالتك قد جمّدتني، لا أجد كلمة أخرى تصف الإحساس الذي اعتراني. لم تقل لي فيها شيئاً عمّا أريد سماعه. فيها اللباقة واللّطف فحسب، دون أيّ جواب، مع أنّ السؤال كان بسيطاً: ممّ مات؟ ولكنّك تجيبني بصلواتك فقط.

لا يسعني منع نفسي من التفكير في احتمال أنّك تخفي عنّي شيئاً. ولكن، ما هو؟ ولماذا؟

لننسَ ذلك، ربّما معرفة ظروف موته ليست هي الأهمّ. يجدر بي أن أسرّ لك بأمر، أخي غويدو، أو بالأحرى أن أعترف لك: أندريا يعيش في داخلي في كلّ لحظة. وبما أنّك لن تقرأ هذا الاعتراف أبداً، فلن أغفل عن شيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنّ الإغواء الذي أشعر به لملامسة أندريا شديد للغاية، لكن هذا الجسد العفيف أبداً، يحملني إلى ما هو أبعد من الرّغبة بكثير. يحاصرني داخل فجوة الحياة والموت. يأخذني إلى حيث الجمال السامي وفناء الأجساد. إنّي لمدرك أنّ جسد أندريا يتحلّل الآن داخل حفرة حقيرة في ديركم. غير أنّه في ذهني أكثر حياة من أيّ وقت مضى. لم يعد جسده موجوداً، ومع ذلك فإنّ ذكراه تتخطّى جماله، وتعيد إحياءه حتّى أصبح خالداً في ناظَري.

اسمح لي، أخ غويدو، أن أذهب شأواً بعيداً أيضاً، وأن أشبّه جسده بجسد نحاول نحن النحّاتين والرسامين أن نستنسخه هو جسد المسيح، المصلوب حيناً والممجّد حيناً آخر، نشكّله بفضل ريشاتنا ورخامنا، و ننفخ فيه جماله السرمديّ ثمّ يكون من واجبنا أن نعبّر عنه. في داخلي قوّة، ماغما، تدفعني للقيام بذلك. تكاد تكون مسألة حياة أو موت.

أندريا يلازمني. يتسلّل باستمرار إلى خلايا عقلي ويحتلّ كلّ مخيّلتي أثناء العمل.

فضلاً عن ذلك، هناك تلك الذكريات التي تطفو على السطح مجدّداً دون سابق إنذار. عطر وضحكة، باغتاني، أعيياني، رغم حرصي على إحكام إغلاق الصندوق. كان يفترض ألاّ يُفتح ذلك الصّندوق أبداً. وصل بي الحال إلى الظنّ بأنّ الشجرة الكبيرة، وهي تتابع طريقها تحت التراب، كسرت الغطاء، تاركة عطر السوسن ورجع ضحكتها يفلتان من تحته.

يتوقف الزّمن أحيانا، وأنا بدوري يصيبني الجمود. هل يجدر بي

توقّف مايكل أنجلو فجأة عن الكتابة. أدار بصره باتّجاه النافذة، وتاهت نظرته في زرقة السماء، تاركاً ريشته تجفّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مالباكو

بقيت الرّسالة مطويّة داخل مفكّرته. لم تكن الصّفحات كثيرة. فكّر أنّ كلّ حياته موجودة هناك، داخل كومة الأوراق الصغيرة تلك، التي لا تتجاوز حجم يده. نماذجه وأفكاره، يقينه وشكّه. لم يعد يخشى ما قد يكون قرأ الكاهن. ليس لديه شيء يخفيه. ألا يعمل بلا انقطاع على مشروع القبر؟ وحبّه لأندريا، ألم يكن أفلاطونياً على الدّوام؟

«لا شيء يمكن أن أُلام عليه»، قال وهو يفتح نوافذ غرفته.

كانت الشّمس قد ارتفعت. وبدا النّهار من حزيران مشرقاً.

فجأة قطع تأمّلاته صوت يهتف باسمه: «مايكل أنجلو!». كان كاڤالينو يناديه من السّاحة.

- حان الوقت كي أعرّفك بها.

- من هذه؟

- فرسي البيضاء، بالتأكيد!

كان النحّات راغباً بمسايرة جنون صديقه الظريف. أجابه دون تردد:

- أنا قادم.

لبس حذاءه ونزل إلى الشّارع في الحال.

- تعال، سوف ترى كم هي جميلة!

سارا معاً حتّى البرّية، عند سفح الرابية. لم يتبادلا أيّة كلمة. كان كلّ واحد منهما يستمتع بالنّور وبحضور الآخر ويترصّد أشعّة الصّباح النديّة.

عند دنوّهما من المرج، حثّ كاڤالينو الخطى حتّى كاد مشيُه يصبح خبباً، ووراءه كان مايكل أنجلو يحذو حذوه في صمت. وحين وصلا إلى حاجز خشبيّ، أطلق كاڤالينو صهيلاً طويلاً، فلاح خيال أبيض يتمايل عند أفق السّهل الأخضر.

«انظر كيف تطأ السّماء!»

فجأة، ظهرت الفرس. كانت ما تزال ترتجف من عدوها عبر الحقول. قفز كاڤالينو من فوق الحاجز واستقبلها بتربيتة خفيفة، طوّق عنقها، وهمس بضع كلمات في أذنها.

رأى مايكل رموش الدّابة المعقوفة تطبق وتهتزّ فرحاً، فلم يجرؤ على الحراك.

- ماذا قلت لها؟

أجابه كاڤالينو بصوت خفيض دون أن يفكّ طوق ذراعيْه حول عنقها:

- قلت لها إنّها نجمتي المذنّبة التي تأتي كلّ يوم، تقرع على قلبي وتذيبه. إنّها حبيبتي الطّاهرة، ناصعة البياض.

رؤيتهما متعانقين بكل حبّ، وهو يقف وراء الحاجز، حملت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مايكل على التّفكير في وحدته الخاصة وفي قبْح حياته وقد سيطر عليها شعوره المقيت بالوحدة. انتبه فجأة إلى التّنافر الواضح بين الحياة التي يعيش بكلّ صرامة وتحفّظ وبين تلك الرّغبات التي يقاومها بشدّة ولكنّها تطفو من حين لآخر في شكل تخيّلات وأحلام. أدرك حينئذ أنّ ذلك التّنافر هو الذّي يدفعه إلى تشكيل أجساد الآخرين، وتملّك جمالها. كاڤالينو على العكس تماماً، لا يعنيه كثيرًا أن يكون شبيهاً بالحصان. وفكرة التّنافر لم تخطر على باله قطّ. كان يعيش حياته كما يريدها بكلّ بساطة.

تساءل وهو ينظر إلى طريقة مُداعبته عُرف فرسه الجميلة من منهما الأكثر جنوناً؟ أليس ذاك الذي يبقى على الطرف الآخر من حاجز الحلم، يركض أبداً خلف الجمال فلا هو يتوقّف ولا هو يدركه.

ظلّ سارحًا وراء خواطره وأفكاره. لقد أثارت وجعًا دفينًا ولكنّها بعثت في أعماقه نشوة خفيفة منعشة. وحتّى لا يعكّر صفو اللّحظة التي أتيحت لهما، تراجع خطوات إلى الوراء تاركاً صديقه وفرسه البيضاء يستمتعان بشاعريّة حبّهما الفطريّ.

مشى على طول الطريق مرتفقًا روحَه وقد تحرّكت فيها مشاعر شتّى. كان قد سمع عن ساقية تنبع من الجبل اسمها مالباكو، يتبرّد حولها الحجّارون في أيام الصيف القائظة.

«لم لا أذهب إلى هناك اليوم؟»

سلك طريق المروج وسمع هناك ألوانَ موسيقى الطبيعة. الجداجد تردّ على النّحلات، والنّحلات تهزّ أزهار الجريسات الصغيرة فتزيد من تناغم الأناشيد السّماوية بغنائها الخافت الرّقيق. دفع في طريقه

أشواك الجمل، وأزرار الذهب، فطارت دعاسيق وأسراب من الذباب الصغير وأحاطت بلبدة شعره الكثّ سحابة منها. لم يقصّ شعره أو لحيته منذ وصوله. كان شعره المهمل ينتصب ويميل على هوى الرياح والقبّعات الصغيرة التي يصنعها بنفسه للاحتماء من غبار الرخام.

توغّل قليلا فسمع خرير السّاقية. كان مجرى المياه مخبّأً وراء الأشجار وقد حفر في الصّخر حوضَه. عادت إلى ذاكرته أغنية كيارا. عرس الجميلة والنّهر. كم من الفتيات جئن إلى هنا يرمين بأنفسهنّ في أعماقه هربًا من شجن الحبّ؟ كم واحدة منهن آثرت أن تتجمّد روحها على تركها هائمةً حياةً بطولها؟

نزع ملابسه. استغرق خلع حذائه المربوط حتى ركبتيه وقتاً طويلًا. ولّما صارت أصابع قدميه حرّة غمرها في المياه الباردة. وحالاً سرت في ساقيه رعشات متّصلة. بلّلهما كلّياً ودعكهما بقبضة من العشب فانحلّ الوسخ. وهكذا نظّف كامل جسمه بعناية فائقة مستخفًّا بالوقت. بعدها قفز في مجرى الماء مقدّماً رأسه على باقي جسده. نبض الدّم في وجنتيه بقوّة، واقشعرّ جلده من المتعة.

أدرك كم كان سعيداً وهو في حضرة الطبيعة وحلاوة هديرها، بعيداً عن الصّخب البشريّ، وحيداً كأنْ ليس يشاركه هذا العالم أحد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

موت ذئب

أثقلت حرارة الطقس الأسابيع التي تلت. معظم الحوادث تقع أثناء تلك الأيام شديدة القيظ. في الصيف كما في الشتاء، عندما تكون أجساد الحجّارين مرتعدة من البرد، أو متعرّقة من الحرّ، يغدو انتباههم مشتّتاً والحجر لا ينسى السقوط مُطلقًا. ينفصل لدى أقلّ هفوة. والجميع يعرف أنّه ليس أمام الحجر سوى مسار وحيد: الانهيار.

في ذلك اليوم، لم يرحم الرخام قلّة حيطة واحد منهم. انزلق الحبل من بين يديه العارقتين. سقطت كتلة الحجر مباشرة، في لمح البصر، وسحقت جمجمته. بعد الضجيج الذي أحدثه السقوط، ساد صمت طويل، نظر الرجال خلاله بعضهم إلى بعض كي يحدّدوا هويّة ذاك الذي لا يردّ على النداء. لم يجرؤ أحد على الحركة. عندما أدركوا الأمر، هرولوا جميعاً نحو الجسد. يحدث أحياناً، ألاّ يُصاب ممّن يقع عليه الحجر سوى عضو واحد. لكنّ الموت في ذلك النهار لم يخطئ هدفه.

تجمّع عدد أكبر لرفع الحجر وقد سوّى ضحيّته بالأرض. لم يبقَ من الجمجمة سوى كومة من الشعر والعظام والنخاع. رسم الحجّارون إشارة الصليب على وجوههم، وتلوا صلاة قصيرة. كان الذباب قد تجمّع حول البقايا المسحوقة. أنزلوا الجثمان إلى القرية في

الحال، وسرعان ما نظّفت الكلاب الشاردة المخلّفات، طامسةً بلمح البصر آثار الدماء.

وبما أنّ الحرارة العالية لم تكن لتترك متّسعًا من الوقت للجثّة قبل التعفّن، حُدّد اليوم المُوالي موعدًا للجنازة. دقّ جرس الكنيسة دقّات الحزن. كانت ثاني صلاة جنائزيّة يحضرها مايكل منذ قدومه. وقد دأبت الأجراس على اختراق الصّمت كلّما غرقت فيه القرية بعد حوادث كتلك. بينما تذهب العائلات إلى بيت الأرملة حاملة معها السّند العاطفيّ والوعود. فالتضامن الذي تبديه القرية عند هذه المصائب لا يتغير. الكلّ يعرف أنّ الموت يخبط خبط عشواء، وأنّ الرخام الذي يستخرجونه من الجبل هو حجر قبورهم أيضاً.

انتظر مايكل أنجلو في فناء الكنيسة حتّى يدخل كلّ الحجّارين. مثلما حدث أثناء جنازة سوزانا، لم يعرف أين يقف. صحيح أنّ الغالبيّة لم تنسَ عبارته الفظّة تجاه ميشيل، لكنّه قدّر أنّ حضوره واجب. ولكن أين بالضبط؟ على أيّ مقعد سيجلس؟

بينما كان شارداً في أفكاره، ناداه ميشيل:

«تعال! هذه المرّة أريدك أن تكون بقربنا!»

- هل أنت متأكّد؟

- نعم، ولقد حدّثت أمّي عن هذا وهي موافقة. هل أخبرتك بأنّها تأتي ليلاً لتراني؟

- كلاّ، لم تخبرني بذلك.

- هل تريد أن أحدّثك عن زياراتها الليليّة؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا، شكراً.

- لماذا؟

تهرّب مايكل أنجلو من السؤال:

- الأفضل أن ندخل إلى الكنيسة.

أخذه الصبيّ إلى الصفّ الأوّل، هناك كانت تجلس عائلته. انتفضت أنتونيلاّ حين شاهدت النحّات يجلس إلى جانبهم.

- كيف تجرؤ على ذلك يا ميشيل؟

- اسكتي! أنت لا تعرفين شيئاً.

أردفت بنبرة متهكّمة لا تخلو من حدّة:

- لقد شتمك، ودنّس سمعة والدتنا!

- هو الوحيد الذي يفهمني، غضبك جعلك صمّاء! أجابها ميشيل بهدوء.

لكنّ الأجراس غطّت على حديثهما وبدأ القدّاس. كان مايكل أنجلو يصغي إلى الموعظة مع أنّه يفضّل النظر خفية إلى وجوه الآخرين. بعضها كان مستغرقاً في ما يسمع، والبعض الآخر يعمل جاهداً لإخفاء ضجره. بينما أقرباء المتوفّى مصعوقون من شدّة الحزن، تنزلق الموعظة اللاتينية فوق آذانهم دون أن يفهموا منها شيئاً.

احتفظ ميشيل بيد صديقه في يده. كان يشدّ عليها بقوّة دون خوف. لم يكن الصبيّ يخشى مغادرة النحّات، كلاّ، كانت قبضته تعبّر عمّا يحسّ به: صداقة عميقة يشعر بها ملء يده ويستأنس وجودها بالقرب منه.

فجأة، وبينما الجميع جاثون للصّلاة، دخل كاڤالينو وهو يصهل. وانبرى يعدو في صحن الكنيسة. على الرّغم من أنّه كان يعكّر صمت المناولة، لم يمتعض أحد من رواحه ومجيئه لكثرة ما اعتادوا عليه. لكنّه حين قال متعجباً: «أن يموت ذئب خير من أن يموت ثور!» عمّ السخط، وارتفعت أصوات آمرة إيّاه بالذهاب. ولكنّه تجاهل سبابهم وتابع عدوه مردّداً:

«موت ذئب خير من موت ثور!»

دعاه الكاهن إلى الخروج وانتظار نهاية القدّاس كي يقول ما يريد، لكن كاڤالينو لم يذعن، وراح يصيح بصوت أعلى فأعلى، وعندئذ قبض عليه رجلان وساقاه حتى البوّابة. دنا مايكل من التجمّع الصغير واستطاع أن يهمس في أذن صديقه:

«فكّر بها. هي لا تحبّ أن تراك هكذا!»

وفي الحال تقوقع كاڤالينو على نفسه أرضًا وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة. وهكذا عاد الرجال الذين كانوا يحيطون به إلى مقاعدهم، ورافقه النحّات إلى الخارج.

جلسا فوق درجات الساحة. كان كاڤالينو يبكي بهدوء. مكث مايكل أنجلو إلى جانبه، وحين جفّت دموعه، حكى له عن حمّامه في مالباكو، وقال له أيضاً كم كان سعيداً برؤيتهما معاً هو وفرسه البيضاء الجميلة.

«ما من تمثال يمكن أن يعبّر عن رقّة حبك».

- أنت كلب تائه بين الذئاب، همس كاڤالينو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأسطورة

تذكّر مايكل أنجلو عبارة كاڤالينو. كانت صادقة في التّعبير عن حاله. إنّه في أغلب الأوقات تائه وسط الآخرين، والشّخصان الوحيدان اللّذان يمكن أن يثق بهما، مجنون يظنّ نفسه حصاناً، وراهب صاعق الجمال مات قبل أن يتمكّنا من تبادل الحديث. لم يكن النحّات صاحب الأيدي ذات الموهبة الفذّة والمهارة النّادرة مغفّلاً، وكان يحلو له أن يقول لأقرانه: «لا تنظروا إلى وجهي، إنّه قبيح. حريّ بكم أن تنظروا إلى يديّ! هما على قدر من القوّة يسمح لهما بتشكيل الحقيقة ومنح الحياة إلى الحجر. داخل الثّلم الذي يحزّه إزميلي تنبض عروق المرمر بالدّماء».

ساقته رحلة ذكرياته إلى وجه جديد كان يطمئنّ إليه كليّاً. ارتسمت ابتسامة مربّيته. وثدياها أيضاً. ما يزال مايكل أنجلو يذكر بجلاء كيف كان يسند رأسه الصغير عليهما ويستطيب نعومتهما. كانا ضخمين، أكبر من جسمه وهو طفل. يغوص بينهما ويستمتع بطعمهما العسليّ الحامض قليلاً بفعل امتزاجه بالعرق. كانت مربّيته وثدياها بالنّسبة إليه حينذاك مصدرا لساعات من اللّهو والسّرور. وكان مستعدّا للتّضحية بحياته في كلّ لحظة من أجلها.

وماذا عن الأخرى؟ تلك التي رحلتْ ولم يكن يعرف عنها سوى ضحكتها وعطرها.

سرت في عموده الفقري رعشة، وتشتّت عند قاعدة جمجمته. كان السؤال، يدفعه نحو هوّة مخيفة. إنّه يقبل أن يراها من بعيد ولكن لا يريد أن يدنو منها. ومع ذلك لم يكن يستطيع منع نفسه من التساؤل:

إلى أين مضيتِ؟ لماذا أغلقتُ ذلك الصندوق؟ هل سأكون قادراً على فتحه ذات يوم؟

هل كان يريد ذلك حقاً؟

حرّضته أفكاره على طلب رفقة ميشيل. ميشيل ليس في حاجة إلى صندوق، وهو يتحدّث بحريّة تامّة عن المرحومة أمّه. كان يعلم أين يعثر عليه. كل مساء، يلعب الصبيّ في ساحة الكنيسة.

وجَده هناك بالفعل. بمجرّد أن رآه ركض نحوه وصاح بفرح طفوليّ محبّب:

- أتيت كي أحدثك عن أمي، أليس كذلك؟

- نعم، أظنّ ذلك.

- هيّا، لنجلس على درجات الكنيسة.

ومثل كلّ أهل القرية، ذهبا إلى هناك. بدأ ميشيل حكايته:

- إنّها تأتي لتراني في اللّيل. أحياناً تكتفي بمداعبة شعري. ولكن في أغلب الأوقات تحكي لي حكاية. وهذا غريب، فهي لم تكن تفعل ذلك في الماضي إلاّ نادرًا. بين الحين والآخر، كانت تأتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما نكون كلّنا نائمين في السّرير الكبير. كنّا نعشق تلك الأوقات، حتّى أختي الكبرى كانت تسكت حين تشرع في سرد حكايتها!

ضحك ميشيل. لقد عرف كيف يحتفظ بفرحه.

«ولكنْ أين فرحي أنا؟»

استأنف الصبيّ:

- ليلة البارحة، جاءت تروي لي قصّة أحبّها كثيراً: أسطورة كارّار، هل تعرفها؟

- لا.

- إنّها قصّة رجل كان يعيش منذ زمن طويل جدّاً، داخل مغارة في الجبل. كان يمضي وقته في التنزّه وصيد الأسماك. وفي أحد الأيّام، أضاعت إحدى الحوريّات طريقها، واتّبعت ساقية أوصلتها إلى شلاّل الهضبة. كان الرجل هناك. نظر أحدهما إلى الآخر، ووقعا في الحبّ فوراً. أقامت حوريّة البحر معه في مغارته. ماذا تعني بالنّسبة إليك حوريّة البحر؟

- امرأة لها ذيل سمكة.

- بالضّبط، ولكن أضف إلى ذلك، أنّها لا تشيخ! بعد سنوات عديدة، أصبح الرجل عجوزاً وهي ظلّت على حالها، شابّة. أثناء كلّ ذاك الوقت، كانت الأمّ تبحث عن ابنتها في كلّ المحيطات، إلى أن جاء يوم صعد فيه أحد الدلافين إلى السّاقية. وجدها بالقرب من العجوز النّائم. قال لها الدلفين: أمّك تبحث عنك في كلّ مكان! ماذا تفعلين مع هذا الرجل العجوز؟ أجابته

الحوريّة: «في الماضي كان شابّاً، فضلاً عن ذلك أنا أحبّه، وأريد البقاء بقربه». ألحّ الدلفين: «تعالي معي، عودي إلى مملكتك البحريّة. إنّه على وشك الموت ولن تلبثي أن تصبحي وحيدةً بلا رفيق!» نظرت الحورية إلى الرجل الممدّد إلى جوارها ورأته كما هو، عجوزاً ومريضاً. عندئذٍ قرّرت أن تتبع الدلفين. ولكن قبل أن يتمكّنا من بلوغ البحر، أوقفهما الربّ سائلاً الحوريّة: «لماذا تخلّيت عنه؟» فأجابت: «لأنّه عجوز!» ولمعاقبتها على استهتارها، حوّل الربّ الجميلة والدلفين إلى رخام.

صمت ميشيل بضع لحظات، ثم استأنف:

- انتهت القصّة. هل أعجبتك؟

- نعم، كثيراً.

- هل كانت أمّك تحكي لك الحكايا؟

- لا أعرف، نسيت.

- ولكن، لا يمكن نسيان شيء كهذا!

- بل يمكن، كما ترى، أنا نسيتُ كلّ شيء. حتى وجهها.

نظر إليه ميشيل مذعوراً، وانفجر باكياً.

- لماذا تبكي؟

- لا أريد أن يحدث معي ذلك!

- لا تخفْ. أنت سوف تتذكّر كلّ شيء. أنا واثق من ذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لورنزو

في الأيّام التي تلت، انكبّ مايكل على العمل، خافضًا رأسه، غير مبالٍ بالسّاعات وهي تمرّ، ودون أن يشعر لحظة واحدة بالشمس الحارقة. يختار قوالب الحجر، يتأكّد من أحجامها المناسبة، ومن قابليّة استيعابها التمثال بكامله. أموال طائلة كانت على المحكّ، وكذلك سمعته.

بحلول المساء، يكون قد أنهك تمامًا. فيغتنم الساعة التي يقضيها في المسير إلى القرية ليفرغ فيها ذهنه من كلّ الإجراءات والمفاوضات ومن جَلَد النهار.

حين يعاود النزول مع الحجّارين، يتحوّل مزاجه إلى الفرح والمزاح والضحكات الصادقة. وعندما يسلك الطريق وحيداً، كانت خطواته تحمله إلى طرف الغابة الصغيرة، هناك تعبر أفكاره من الرخام إلى الشمس الغاربة، ومن الثيران إلى شتائم توبولينو.

وحين يصل أخيراً إلى غرفته، ويفتح النافذة على مصراعيها، يكون الغسق قد اصطبغ باللّون القرمزيّ والبعوض قد اكتسح الفضاء.

في إحدى الأمسيات، وبعد أن مضى وقت طويل على التهامه العشاء الذّي قدّمته إليه ماريا، وقع نظره على الكتب الثلاثة فوق

المنضدة: بترارك، إنجيل أندريا، ومفكّرته الصغيرة. الإنجيل لم يُفتح بعد. أمّا كتاب الأناشيد فقد كان يقلّب صفحاته بين حين وآخر. يذكر يوم قدّم له لورنزو دي ميديتشيله الكتاب وكأنّه البارحة. جرى ذلك أثناء مقابلة منحه إيّاها فخامته في مكتبه الصّغير الخاصّ. ولكن قبل ذلك، جمعهما لقاء فعليّ أوّل في حديقة بيرتولدو، أيّام كان مايكل أنجلو مراهقاً، ينحت في الرخام، على نهج الأقدمين، رأس ساتير(*) لفت العمل نظر لورنزو وتوقّف فجأة أمام الوجه الذي أُنجز على نحو مثاليّ. قال وهو يبتسم للشابّ الخجول:

«اكسر له سنّاً أو اثنين، وإلاّ سنظنّه أصليًّا!»

نفّذ النحّات الشاب في الحال، فذهل لورزنزو من براعة يده ودعاه إلى مائدته، ثم طلب منه المجيء إلى مكتبه ليتباحثا في الفلسفة.

ذهب إلى هناك عدّة مرات، يسبقه فضوله، راغباً باقتحام قلب المعرفة والسّلطة. لم يكن مخطئاً، لورنزو ليس سيّداً فحسب، بل أيضًا أحد أكثر الرجال علماً في فلورنسا بأسرها.

وفي واحدة من تلك اللّقاءات، مدّ نحو النحّات الشابّ نسخة بترارك الصغيرة وهو يقول له:

«سوف ترى كيف يصف الشاعر الحبّ والموت بأكثر الكلمات صدقاً حتّى لتظنّه شبه إله. أتمنّى أن يكون لديك مثل مقدرته وتعبّر عن الجوهر نفسه في أعمالك، وأن تبعد عنها كلّ خدعة أو لبس».

تلعثم مايكل أنجلو وهو يشكره، ولوقت طويل جدّاً، لم يجرؤ على فتح الكتاب لفرط ما كان يحسّ بعدم جدارته به.

(*) إله خرافي له قرنا تيس وذيله، يقطن في الغابات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد خمس عشرة سنة، ها هو يتساءل هل تمكّن من الاهتداء إلى الطّريقة التي تجعله قادرا على أن يعبّر عن ذلك الجوهر بما يليق به من صدق وصفاء، أو هل كان على العكس، مضلّلاً في كلّ أعماله وبعيدًا عن نفخ تلك الرّوح الصّافية في حجره الحيّ. الجواب لا ريب فيه، إنّه ما يزال تائهاً في هذا المسلك الوعر، ولا يبدو أن السنين قد جعلته يتحسّن. مع ذلك، كان يحاول السيطرة على أدقّ التّفاصيل في قبر جول الثاني. رسم النّموذج فوق النّموذج، إلى أن وثق بعمله. ثم ترك الزّمن يمرّ على تلك الرسومات وعاد إليها بعد ذلك بنظرة جديدة كي يقدّر براعة أفكاره. لم يكن يتردّد في إعادة المحاولة لو اقتضى الأمر ذلك وتبيّن له خلل ما.

سوف يكون القبر أحد إنجازات حياته الرئيسية. ضخامة هذه المهمّة وجسامة التّكليف، ستتيح له أن يعبّر عن كلّ أشكال موهبته: ابتداء من التصوّر والتّصميم وانتهاء إلى الإنجاز، مروراً باختيار المادّة، هذا الرخام الباهظ الثمن. سوف يحظى أخيراً بالمجد الذي يليق به. ورغم أنّه كان قد لفت نظر هواة الفنّ المتنوّرين بفضل تمثالي داوود والشفقة، إلاّ أنّه كان يحلم باعتراف أكثر عظمة، تمتزج فيه عبارات الدّهشة والثّناء برنين قطع الدوقيات الذهبيّة وسطوتها.

كان في قرارة نفسه يدرك أنّه الوحيد الذي يمتلك مزيجاً من المعرفة الكاملة بالمادّة وقوّة الخيال. قوّة مرهفة، خنثويّة مبدعة خاصّة به، تدنيه من بلوتان(*) وإنيادته التي ظلّت قراءتها بصوت عالٍ من

(*) ملحمة شعرية لكبار شعراء الأدب اللاتيني القديم الشاعر بوبليوس فرجيليوس المعروف باسم فيرجيل في القرن الأول قبل الميلاد. قضى في تأليفها اثنتي عشرة سنة.

قبل بيكو دي لاميرندا حول مائدة لورنزو محفورة في ذاكرته حتّى الآن وستبقى إلى الأبد. ألم يكن بيكو نفسه، هو أيضاً، تجسيدا للأنوثة المطلقة المخلوقة في رجل؟ ملامحه الدّقيقة، شعره الطويل المسترسل، يداه فائقتا النعومة، كلّ ذلك مجتمعًا يخلق لدى الآخرين انطباعاً لا يمكن تحديده، انطباعاً بالتوازن التامّ ما بين الذكورة والأنوثة.

فجأة، ظهر وجه أندريا من بين سيل الذكريات. لا، لقد كان رجلاً قويّاً ويافعاً، مفعماً بالقوّة والنضارة. كانت له نظرة دهشة بلون أزرق صارخ. أزرق يمكن لمايكل أن يتوه فيه إلى ما لا نهاية. أزرق لازوردي، بلون معاطف السيّدات النّبيلات، والسّماء المشمسة.

دون وعي منه، مدّ يده، وتناول الإنجيل الصغير. تردّد لحظة، لكنّ يديه غلبت تردّده. ها هو يلامس بلطف غلافه الناعم، الناعم جدّاً.

أغمض عينيه، وفتح راحتيه، وعندما تجرّأ أخيراً على النّظر إلى العبارات المتراقصة أمامه، تعرّف في الحال على بداية إنجيل يوحنّا. استغرق في النظر مطوّلاً إلى الزّرقة التي تسبقه. اللّون الأزرق المبرز للكتابة فوقه هو نفسه لون عينيّ أندريا.

«أندريا، يداي تلامسان الغلاف، حيث تركت يداك بصماتها. هذا الغلاف، هو غلاف الذّكرى».

فجأة، انشدّ انتباه النحّات إلى شيء آخر. فوق تلك الصفحات، كلمات خُطّ تحتها بريشة دقيقة، تكاد تكون مرتعشة.

«والكلمة صارت جسداً وحلّ فينا بيننا».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكلمة

ظلّ مايكل أنجلو يرتجف. سقط الإنجيل ونقر الأرضيّة الخشبيّة. انبجس انفعاله على إثر هذه الومضة السريعة في فكره، «موت أندريا». وهذا البرهان الملموس عن وجوده. وسبب اختياره أيضاً، لأنّه أراد إبراز هذه العبارة الشديدة العمق على بساطتها الظّاهرة، والتي كانت، منذ فجر الأزل تجسّد المسيح.

استرجع الكتاب الصغير بسرعة وراح يبحث بجنون عن الصّفحة. ها هي ذي. يقرأ ويعيد. يلامس بأطراف أصابعه الكلمات التي خُطّ تحتها سطر. هل ثمّة كلمات غيرها؟

بعد صفحات قليلة، خطّت ريشة أندريا في أدنى الصّفحة ما يلي:

«من يأكل من جسدي ويشرب من دمي، يسكن فيّ وأسكن فيه».

وتحتها:

«هذا كلام صعب، من يستطيع أن يسمعه؟»

ضاقت أنفاس مايكل أنجلو. هل اختار أندريا هذه الكلمات لجمالها فحسب، أم أنّه أراد أن يربط فيما بينها كي يعطيها معنىً؟

بلغت به الحيرة والتّخمينات أن تساءل: هل كانت هذه رسالة يستلمها؟ تذكّر كلمات الأخ غويدو أثناء لقائهما الأخير في المشرحة.

ماذا قال بالضبط؟ شيئاً مثل:

«ترك هذا لك». لقد طلب أندريا على عجل إذاً أن يُسلّم إليه هذا الإنجيل الصغير.

ذهب مايكل أنجلو في خيالاته شأواً بعيداً جدّاً. مع أنّ ذهنه كان أعقل من أن يصدّق هذا الاحتمال.

«أيها النحّات، ثب إلى رشدك! ذهنك يمدّ لك الحبائل!»

أغلق الإنجيل ووضعه بحيطة على المنضدة، ثم شرب جرعة كبيرة من النّبيذ الأحمر على أمل أن تعيده سكرة الخمر إلى التعقّل.

وما إن وضع الكأس على المنضدة واستلقى على السّرير حتّى غفا في الحال.

في صباح اليوم التالي، وهو في الطّريق إلى المقلع، وبينما كان يجهد لنسيان ما خطّت ريشة أندريا، صادف ميشيل برفقة والده. انضمّ الصبيّ إلى النحّات على الفور.

- اليوم، أنا ذاهب إلى المقلع! وهذا نادر جدّاً، أنا مسرور. هل ستحكي لي ماذا تفعل هناك؟

- أختار كتل الرخام من أجل قبر البابا.

- هل مات؟

ابتسم مايكل أنجلو وأجابه:

- لا، وإنّما تحسّباً. طلبه وهو على قيد الحياة حتّى يكون مطمئناً إلى النتيجة ومعرفة ما إذا كانت تناسبه أم لا.

- هذه فكرة غريبة... وهل عثرت على الكتل إذاً؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- تقريباً كلّها. يلزمني الكثير منها. أنت تعرف، سيكون القبر من طابقين، مثل بيت دون سطح. وكلّه محاط بأعمدة ونوافذ وكُوى وتماثيل. داخل هذه الجدران، سيكون القبر بالمعنى الحقيقيّ، حيث سيسجّى جثمان البابا. يلزمني الكثير من الرخام، وعليّ أن أختار وأنا على وعي بمكان كلّ قطعة وبأيّ الأجزاء تلائم أكثر.

- وكيف تفعل ذلك؟

نظر مايكل أنجلو إلى الصبيّ وأجاب بنبرة مخاتلة:

- أرى كلّ ما يختبئ داخل الحجارة.

- هل هذا صحيح؟ سوف تُريني ذلك إذن عندما نصبح في الأعلى!

ما إن وصلوا، حتّى استعدّ مايكل أنجلو للعمل. راح وهو يشير إلى قوالب الرخام المجموعة بالقرب من حطام الحجارة، يشرح إلى ميشيل أنّها مخصّصة للتزيينات المعمارية، لأنّ نوعيّة رخامها أقلّ جمالاً. استأنف بعد لحظات من الصّمت وهو يتنقّل بين قوالب الحجارة:

- بخلاف تلك التي تراها هناك، فهي لصنع التماثيل. لا يوجد عروق في داخلها، أعرف ذلك. من شكلها، يمكنني أن أرى الأشخاص المختبئة في داخلها.

كان ميشال يتابعه باهتمام وهو يتنقّل بالقرب منه. أشار بيده فجأة إلى إحداها وقال:

- وتلك، ماذا يوجد بداخلها؟

- يوجد رجل يتلوّى محاولاً التحرّر من الرخام. بإزميلي، أطوّع الحجر شيئاً فشيئاً. أقترب منه إلى أن يتمكّن من الخروج.

- الجبل إذنْ مليء بالأشخاص المنتظرين؟

- لم أنظر إليه هكذا قطّ، ولكن بما أنّك قلت ذلك، فأظنّ أنّك على حقّ.

- وفي الليل، هل يصبح أشخاصك أحياء؟

- بالتأكيد، ما إن يتحرّروا. فكلّ ما يريدونه هو التحرّك!

كان مايكل أنجلو يضحك بطيبة على تصديق الصبيّ، دون أن يخامره الشكّ بأنّ ميشيل كان يسعى وراء فكرة محدّدة:

- هل يمكن أن تصنع تمثالاً لأمي! أرجوك.

كانت نظرة الصبيّ متوسّلة.

- من فضلك، بما أنّه بإمكانك أن تحيي الحجر، اصنع تمثالاً لها!

لم يجد مايكل أنجلو الواقع في فخ البراءة، شيئاً يجيب به الصبيّ المتوسّل بكلّ جوارحه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفطيرة

أثارته الرائحة. عندما دخل إلى بيت ماريا، فاجأته رائحة طعام، بكلّ بساطةٍ وجدها لذيذة، رائحة تحمل إليه شيئاً ما لا يستطيع تحديده ولكنّه مألوفٌ عنده. كان المنزل كلّه عبِقاً بالرائحة المُتصاعدة من المطبخ في الطابق الأرضيّ حتى الطوابق العليا، وحطّت على مقربة منه لتدغدغ أنفه.

بعد بضع لحظات، أطلّت ماريا من باب الغرفة وهي تصيح مُعجبة:

- يا معلّم، أعددت لك هذا المساء طبقاً محليّاً صرفاً!

- شكراً يا ماريا، يمكنك وضع كلّ شيء على الطاولة.

ردّ عليها من النافذة. هناك يستند إلى مرفقيه كلّ مساء متأمّلاً النّهار وهو يضمحلّ.

انسحبت ماريا بخفّةٍ. بعد تلك الأمسية الأولى ومحاولتها أن تطرح عليه سؤالاً شخصياً، لم تعد تسأله شيئاً. كانت تكتفي بما قلّ ودلّ ممّا تفرضه اللباقة. ما عدا ذلك، أدركت أنّ مايكل أنجلو هو من أولئك الذين ينسجمون مع الصّمت ويميلون إليه كليّاً.

عندما جلس النحّات إلى المائدة، سمع وقع خطواتها الخفيف على

السلالم. على حوافّ الطّبق صفّفت بعناية لقيمات من فطائر ذهبيّة يلمع فوقها الزّيت. أخذ منها واحدة. تغلغل المذاق داخل فمه، وما إنْ تشرّبته حُليماته الذّوقيّة حتّى رحل به إلى مطبخ العائلة الكبير في طفولته، إذ لم تكن أمّه تدخله إلاّ لتحضير تلك الفطائر نفسها.

فجأة، أصبح مايكل أنجلو طفلاً في الرابعة أو الخامسة من عمره. يجلس فوق البلاط، وتعطيه أمّه لقمة ساخنة جدّاً. بَقيَ وجهها غير واضحٍ، لكنّه كان يسمع بوضوحٍ صوتها وهي تقول له:

«طحين الحمّص، ماء، زيت، زعتر، وحُبّ. الكثير من الحُبّ».

ورنّت ضحكتها من جديد.

الطعم ذكرى ثالثة:

من مجثمه العالي

سقط فوق أرض طفولته

يدٌ في غاية الرقّة

حدّثته عن النكهات والحبّ

سمعها، شمّها، تذوّقها.

متى سيراها؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحلم

التهم مايكل الفطيرة ولم يترك منها أيّ فتات. لم يأكل شيئاً آخر حتى لا يُفسد المذاق الحلو المتفجّر داخل فمه. نام وحليماته الذوقيّة مفعمة باللذة. والأمل يُراوده برؤيتها.

كانت صور الحلم الأوّل سعيدة. لم يكن أندريا بلباس الكهنوت، إنّما بلباس يلائم المدينة: سروال قاتم اللّون خيطَ على مقاسه، وسترة من المخمل المموّج. كان أندريا في منتهى الجمال وهو يتنزّه في حديقة طفولة مايكل أنجلو.

الطقس ربيعيّ، الأزهار تلوّن العشب الأخضر الطريّ بألوان قوس قزح، وأندريا يمشي ويضحك. كان يتحدّث إلى شخص. لم يره مايكل أنجلو، لكنّه لا يرتاب أبداً في هويّته، إنّها أمّه. في البدء، لم يرَ سوى جمال الحديقة الخلاّب، وهذه النّسمة الخفيفة حملته إلى الزّمن البعيد، عندما كان هو حبيبها وكانت هي في أبّهة جمالها.

كانت تجلس على مقعد حجريّ، في ظلّ شجرة غارٍ ورديّة اللّون. رأى شعرها الكستنائيّ الطّويل يغطّي كتفيها وجزءًا من ظهرها.

في نومه، مدّ النحّات يده. يريد أن يلمسها لحظة واحدة كي يستعيد طعم الهناء. حركة صغيرة قد تعيد إليه ذاكرته وجزءاً من

حياته الذّاوية. لكنّ يده لم تلمس سوى خواء الليل. دنا أندريا من السيّدة السمراء ودعاها إلى الرّقص بضع خطوات. وافقت وهي تضحك فتضيء ضحكتها المكان.

عَمَرَ قلب النحّات بالضّحكة المستعادة.

أمسكت بيد أندريا في تلك الحديقة حيث يصطخب الرّبيع ثمّ تعانقا. يافعان ممتلئان حيويّة يدوسان العشب بسعادة. يدوران حول نفسيهما دون أن يتعبا. بدت رقصة الحلم لا نهاية لها.

كان مايكل أنجلو يودّ أن يوقفهما ليقول لهما: «انتظرا، توقّفا لحظة لأتمكنّ من رؤية وجهيكما، ثمّ عودا إلى الرّقص بعدها فوراً! امنحاني هذه السّعادة!»

ولكن هيهات أن يسمعاه! كانت الحديقة أشبه بجنّة عدن، وفي الوقت ذاته هي حديقة طفولته. لم يكن صوته يصل إليهما. بقي لصق وسادته. كان يختنق في نومه.

شعرها يدور بسرعة، ومايكل لا يرى سوى خصلاته الكستنائية الملفوفة تدور على الوتيرة الجامحة. كان حرير ثوبها يرافق حركتها. كأنّها سهم ملوّن يتحرّك عند أفق السماء. أمّا رجع ضحكاتهما وصوتيهما فكان يرنّ داخل الحلم. صور شاعريّة لسعادة منسيّة. تنهّد من الغبطة.

فجأة علا صوت أندريا من قلب دوامة جسديهما: «والكلمة صارت جسداً وحلّ فينا بيننا. من يأكل من جسدي ويشرب من دمي، يسكن فيّ وأسكن فيه. من له آذان فلْيصغِ»

راحت الجميلة ذات الشّعر الكستنائي الطويل تردّد مع أندريا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بصوت واحد. يقطع صوت خطواتهما أوزان هذي العبارات وهما يردّدانها حتّى انقطعت أنفاسهما. كانت السعادة التي يعبّران عنها بعيدة كل البعد عن المعنى العميق لكلامهما إلى درجة بدا معها التّناقض مربكاً ومقلقاً.

تحوّل الحلم. كان مايكل يتخبّط، يتلفت، يطلق همهمة خفيفة.

بعد بضع لحظات، توقّف الراقصان مع قهقهة عالية. بحركة رقيقة، دعته ليتبعها إلى داخل البيت. في المطبخ، في المكان الذي تبدّت فيه ثالث ذكرى من ذكريات مايكل أنجلو. داخل الحلم، لم يغفل عن أيّ تفصيل: البلاط الحجر غير المنتظم، النّوافذ الصغيرة، المائدة الخشبيّة الكبيرة ومقاعدها، الموقد الضّخم. كان كلّ شيء في مكانه، كما في الماضي.

حبس مايكل أنجلو شهقة عندما رأى الفطائر فوق الطاولة والبخار يتصاعد منها. كانت رائحتها تتجاوز السنين واللاوعي والنّوم. يملأ طعمها فم صبيّ الأمس ورجل اليوم النائم. أخذ أندريا واحدة منها. اكتشف الفطيرة المصنوعة بحسب وصفة سريّة، هي ذلك الحبّ الأموميّ معدوم الوجه، فقال متعجّباً:

«مذاقها طيّب، مثل جسدي ودمي!»

فأجابته المرأة السّمراء المفتونة بالمديح:

«تعال، سوف أعطيك قضمةً أخرى!»

غير أنّها لحظة دنا منها، بسطت يدها على وجهه الفتيّ، وبحركة سريعة، نزعته فاختفت ملامحه. لم تعد خصلات شعره الذهبيّ تؤطّر سوى صفحة بيضاء، تخلو من العينين والأنف والفم. جِلد خال من

أيّ شيء. غدا الآن ممحوّاً، مثل وجهها تماماً.

تجمّدا في الصّمت. ما من أثر للمرح ولا للرائحة ولا للرقص ولا للطعم. النسيان فحسب.

أفاق مايكل أنجلو صارخا: «لاااا!»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشحّاذان

قرعت ماريا الباب. طوى مايكل أنجلو الرّسالة بحركة خاطفة وخبّأها داخل مفكّرته ثم دعا المرأة الشابّة بصوت وقور إلى الدّخول.

- أعتذر عن إزعاجك أيّها المعلّم، لكن هناك قرويّون بانتظارك يريدون التحدّث إليك.

ساور النحّات القلق، لم يكن يحبّ أن يكون لدى الآخرين شيء يقولونه له.

- ماذا يريدون منّي؟

- بخصوص كاڤالينو، على ما أعتقد.

- حسن جدّاً، سوف أوافيهم.

راح وهو ينزل السّلالم يمسّد شعره ولحيته كي يمنح نفسه رباطة الجأش. في الأسفل، كان هناك خمسة رجال رفقة ماريا. يومئون بأيديهم كأنّهم يرقصون الباليه، ويطيلون الحديث معها.

- ها أنذا، ما الذي يجري؟

- تفضّل واجلس إلى المائدة الكبيرة، قال أحدهم، سوف نشرح لك.

أحضرت ماريا إبريقا من النّبيذ الأحمر. قرعوا الكؤوس بصمت،

إلى أن قرّر أحدهم الكلام.

- بشأن كاڤالينو، حالته سيئة.

- ماذا حدث له؟

- نظنّ أنّ ذلك بسبب فرسه.

لم يستطع أحد الرّجال أن يكتم ضحكة انطلق صداها رغم محاولة صاحبها أن يخفيها بيده التّي ضغطت على فمه.

- إذا جئتم إلى هنا للهزء به، سوف أعود إلى غرفتي، ليس لديّ وقت أضيّعه من أجل هذا.

استأنف الرجل كلامه بعد أن نظر إلى مصدر الضّحكة المكتومة نظرة زاجرة:

- معه حقّ، كفّوا عن السّخرية! كلّنا نحب كاڤالينو. إليك ما جرى: خلال عدّة أيّام، هام على وجهه في القرية حزينًا أشدّ ما يكون الحزن. ثم جاء ليرانا واحدًا تلو الآخر، كي يخبرنا أنّ الفرس البيضاء تسوء حالتها، ويخشى عليها من الموت. هل حدّثك عن ذلك؟

- لا. في كلّ الأحوال ماذا بوسعي أن أفعل؟

- لاحظنا أنّه يثق بك، ويصغي إليك.

- وماذا تريدونني أن أقول له؟

- إنّها فرس فحسب، وبإمكانه العثور على غيرها!

عادت ضحكات الاستهزاء أكثر فأكثر. وقف مايكل أنجلو فجأة.

- ليس بوسعي عمل شيء معكم! عمتم مساء يا سادة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نهض وغادر الغرفة بخطوات حازمة. ولكنّه تراجع عن موقفه فجأة. توقّف على مقربة من الباب وفكّر: ماذا لو جاراهم وأذعن لما يطلبون؟ قد ينجح ذلك في الردّ على ما يقولون عن طبعه النّزق.

عاد إلى الغرفة ونظر في وجوههم قائلاً بهدوء:

- سوف أذهب، ولكن بمفردي. دلّوني على مكانه.

- شكراً يا معلّم، سوف نرافقك حتّى منزله، ثم نتركك.

نزل الجمع الصغير إلى الشارع، كان الليل قد حلّ. لاحظ مايكل أنجلو أنّ الأيّام بدأت تقصر بنسق سريع. وذلك يعنى أنّ نهاية الصيف باتت وشيكة.

«كم من الوقت ما يزال عليّ أن أبقى هنا ؟ متى سأنتهي من هذا الرخام؟»

قاده الرجال إلى مكان في القرية لم يذهب إليه من قبل قطّ. في زقاق صغير، بعد الاصطبلات، توقّفوا أمام بيت متداعٍ للسّقوط.

- إنّه هنا! تعيش أمّه في الطابق العلويّ، وهو في الطابق الأرضيّ، مع رفقة آخرين.

- شكراً، بإمكانكم الذهاب الآن.

ابتعد الرجال تاركين معه فانوساً صغيراً. قرع الباب. ما من جواب. قرع مرّة ثانية مرجّحا أن يكون كاڤالينو خارج البيت. ثم قرع مرّة أخيرة وهو يفكّر في المغادرة فسمع من الدّاخل همهمة.

- أنا مايكل أنجلو، أودّ التحدّث إلى صديقي كاڤالينو.

همهمة أخرى، ثمّ صمت.

دخل. كانت الغرفة غارقة في الظلام، والفانوس الذي يحمله بيده يشكّل هالة صغيرة مرتعشة. توجّه إليه بالكلام صوت لا يعرفه:

- ليس عندنا شموع هنا. لا شيء. باستثناء الجرذان...

خطا النحّات بضع خطوات، فاعتادت عيناه العتمة. كانت الغرفة صغيرة جدّاً. تنبعث من الأرض الترابية المرصوصة رائحة بول ونبيذ حادّة. ميّز النحّات ثلاثة خيالات مستلقية على القشّ. اقترب من أحدها. كان أحدها لرجل ينام محتضناً كيساً صغيراً من القمح تبرز منه بعض السنابل. إلى الأمام قليلاً، ثمّة رجل آخر ينظر إليه. كان الرجل الذي كلّمه عند دخوله والذي استأنف قائلاً:

- يريد أن يموت. إنّه على حقّ تماماً. حياتنا هنا مثل الكلاب.

أطلق كاڤالينو تنهيدة ونطق أخيرًا بعد صمت يوحي لمن لا يعرفه بأنّه أبكم:

- بالضّبط، حياته مثل كلب.

تجاهل مايكل الرّجل السكران وانضمّ إلى صديقه.

- ما الذي جرى لك؟ يبدو أنّ الأمور ليست على ما يرام.

- من قال لك ذلك، الذئاب؟

- نعم، لكنّهم يريدون لك الخير، أنت تعرف. وإلاّ ما استنجدوا بي.

ساد الصّمت. لم يعد يسمع سوى شخير النّائم. أمّا الآخر فلا شكّ في أنّه كان يراقبهما. لكنّ نور المصباح كان أوهى من أن يسمح برؤيته. جلس بالقرب من فراش صديقه، فأحسّ في الحال برطوبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأرض تخترق ملابسه وتلتصق بجلده.

- كاڤالينو، كلّمني.

- فرسي البيضاء، صحّتها ليست على ما يرام. هزلت كثيراً في الأيّام الأخيرة. حدث الأمر بسرعة كبيرة. أخاف العودة لرؤيتها، لهذا أمكث هنا.

بعد صمت طويل، همس كمن يحدّث نفسه:

- أريد أن أموت قبلها.

أمسكه مايكل بيديه:

- لا تمت، أرجوك، لا تمت.

الشّجرة

تحدّث مايكل أنجلو قليلاً مع كاڤالينو، لكنّ كاڤالينو لم يجب إلاّ بكلمات ذات مقطع وحيد. كان الصّمت ثقيلا أمام عجز مايكل عن إيجاد الكلمات المناسبة لمواساة صديقه. لم يكن أمامه سوى تركه لأحزانه ويبدو أنّها أعمق ممّا كان يتخيّل. قبل أن يغادر، لمس النحّات يده مرّة أخيرة، ثمّ همس في نبرة بطيئة: «أنا هنا، لا تنسَ».

ثم نهض، حيّا المتسوّلين وذهب إلى ساحة الكنيسة يسبقه نور الفانوس الواهي المتأرجح مع كلّ خطوة من خطواته. عندما وصل أمام منزل ماريا، أطفأ الشّعلة وعاد إلى غرفته.

خلع سرواله واستلقى على السّرير مثقل الذّهن. لن يتركه الموت. لا، بل يبدو أنّه يلاحقه في أحلامه وخيالاته، ومن خلال يأس الآخرين. وهو، هل سبق له أن فكّر بوضع حدّ لأيّامه؟ إطلاقاً ولا لحظة واحدة. كانت رغبته بالحياة المرتبطة بذهنه المبدع لا تترك له خياراً آخر غير المضيّ قدماً، والاستمرار. وفي طريقه اللامتناهية ربما حظي بالنسيان.

حدّق مايكل أنجلو في ظلمة الغرفة. كان يخاف أن ينام وتقبض عليه الأرواح الهائمة لأولئك الذين أحبّهم. فكّر في الصّندوق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصغير، لا شكّ أنّ مفتاحه الآن نهبٌ للصّدأ في قعر البئر. راح جفناه يثقلان تدريجيّا. يرفّان بتواتر، ثم ينطبقان بشكل كامل، ويعزلان ذهنه عن العالم الخارجي، مغرِقين إيّاه في دفء جسده.

في البداية كان نومه هانئًا، عميقًا. لكن حين جاءت أولى تباشير الصّباح وحطّت على نوافذه، اضطرب وبدأت عضلاته تتصلّب.

أوّلاً، شاهد المرج الواسع عند سفح الهضبة. النّور ضعيف خافت، ونسمة لطيفة تداعب الأزهار البرّية التي تغطّيه. لم تكن الفرس هناك. لا شيء غير الخلاء. وفي البعيد، شجرة السنديان تقف وحيدة.

ثمّ راح ذهنه يدنو من العشب. فيرى بوضوح كلّ غرسة، وكلّ تويْجة. صار مثل حشرة تأتي لتحطّ على إحداها، ثم على نظيرتها. بات أكثر خفّة من الهواء، وهو ينتقل من شجرة إلى أخرى. اقترب من شجرة بعينها، وعندما رآها بوضوح، لاحظ نبتة من الأزهار المعرّشة معلّقة على أحد أغصانها، تشبه قماشاً خفيفاً يرتعش على هوى النسمات.

دنا مايكل أنجلو أكثر. فتبيّن له ما كان يظنّه علماً مُلوَّناً. كان كاڤالينو مشنوقاً في أعلى غصن وجسده يتأرجح من جهة إلى جهة، والوشاح الأزرق المعقود حول رقبته يتطاير.

فتح النحّات عينيه على اتّساعهما، وأخرج نفسه من الحلم في لحظة واحدة. نسي أن يرتدي سرواله ونزل السلالم مسرعاً. وجد نفسه في الساحة حافي القدمين. هرول نحو الزقاق، تاه، شتم، وفجأة، عثر عليه. دخل دون أن يقرع الباب. كان ضوء النهار وقد انتشر في الغرفة كافياً ليلحظ أن كاڤالينو قد رحل تاركاً المتسولَين نائمين.

أدرك خطأه في الحال. لماذا لم يذهب مباشرة إلى المرعى؟ كيف للأمور أن تختلط عليه وقد كان حلمه في منتهى الوضوح؟

انطلق مجدّداً بالسّرعة التي جاء بها. اجتاز القرية، سلك الدروب الترابية، دون أن يلتقط أنفاسه، ودون أن يشعر بأيّ ألم عندما كانت قدماه تُجرح فوق الحصى الصقيل كحدّ السكاكين. كان مدفوعاً بأمل مجنون بالعثور على كاڤالينو في الوقت المناسب وإنقاذه، أو ما هو أكثر من ذلك أيضاً، أن يكون قد أخطأ. سوف يضحكان معاً عند ذاك من حلمه السّخيف.

أريد أن ألمس كاڤالينو، أحسّ بعروقه النابضة.

أصبح المرعى أمامه على مدّ البصر. قفز فوق الحاجز الخشبيّ. في البعيد لاحت شجرة السنديان، وإلى جانبها خيال زائغ وسط الأوراق الخضراء. لم يكن يرى المشهد بوضوح من تلك المسافة. ركض أسرع، اقترب. ميّز على الفور الفرس المستلقية عند أسفل الشجرة. كان كاڤالينو يقف على مقربة منها وينتحبُ.

صاح مايكل من الفرح:

«أنا هنا!»

وخوفاً من أن يكون في الوقت بقيّة لارتكاب ما لا يمكن إصلاحه، أردف: «انتظر، لا تفعل شيئاً! لا تتحرّك!»

وصل مقطوع الأنفاس تماماً. أمّا كاڤالينو فلم يتحرّك، ولعلّه لم ينتبه لوجوده. ركع عندئذ بالقرب من الفرس وداعب عرفها.

لم يعد مايكل يجرؤ على الاقتراب، أحسّ بأنّه دخيل. تراجع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهمّ بالعودة من حيث جاء. صديقه هنا، حيّ. لم يكن حلمه سوى كابوس. لا شيء ينذر بالشّؤم. ولم يعد لبقائه هنا من معنى. وكأنّ كاڤالينو قد قرأ أفكاره فهمس بنبرة توسّل ضعيفة:

- ابقَ.

ركع مايكل أنجلو بدوره ولامس جلد الدابّة.

- بعد مرورك إلى البيت هذه الليلة، جئت إلى هنا. وصلت في الوقت المناسب. كانت قد استندت إلى شجرة السنديان. من بعيد، وأشعة القمر تضيئها، بدت مثل سيّدة تلبس رداء أبيض طويل. سيّدة ترقص مع الشجرة. عانقتها و بعد ذلك تهاوت.

- كانت بانتظارك.

- نعم، أظنّ ذلك.

تمدّد كاڤالينو إلى جانبها، ثم خرجت الكلمات من بين شفتيه ضعيفة:

- بإمكانك الذهاب إلى القرية. لا تخشَ شيئاً عليّ.

- أنا أفهم.

رحل مايكل أنجلو. وقبل أن يخطو بضع خطوات، قال له كاڤالينو:

- شكراً، بفضلك جئت إلى هنا. لم تكن لتنتظرني وقتاً أطول.

- أنت على قيد الحياة. همس النحّات.

كانت نظرته في غاية الرقّة، هو المعتاد على صلابة الرخام، لم يكن يظنّ نفسه قادراً على أن يحمل يومًا ما في داخله كل هذه الخفّة.

في ضوء الفجر، كان الرّجل ذو القدمين الحافيتين، يشقّ الريح وقلبه مفعم بالسعادة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرّداء

أدرك مايكل تماماً ما قاله له كاڤالينو بخصوص السّماء. هذا ما كان يشعر به في تلك اللّحظة: إنّه يطأ السّحب، وجسده في خفّة الرّيشة.

لم يكن يريد العودة إلى القرية بسرعة. خشي أن يكون إحساسه قصيرًا وعابراً. توقّف عندئذ إلى جانب الطريق. تمدّد على بطنه، ودسّ وجهه في العشب المكلّل بالنّدى. منحته الحرارة إذ انتشرت فجأة في جوفه سعادة عميقة، تقارب ما يعتبره غبطة حقيقيّة.

«أين أنتِ؟ كم أودّ أن أراكِ. لاشكّ أنّ ذراعيك ستمنحانني الفرح نفسه لو جئتِ الآن».

كان يتحدّث إلى تلك التي لم يلفظ اسمها بعد. من رداء الفرس البيضاء ووشاح كاڤالينو ولد رداء آخر. رداء من القطيفة المطرّزة بالحرير، قرمزيّ اللّون. والطفل السعيد بلقاء أمّه بعد أسابيع أمضاها عند مربّيته، يركض نحوها، ثم يغمر وجهه في القماش الثمين. تتعلّق به يداه، تداعبانه، تجعّدانه. تغدو راحتاهما كشّافتين لعالم الأمومة بصيرتين بها.

كان مايكل أنجلو الطفل تحت تأثير الحبّ ينحت بيديه الصغيرتين

طيّات الرداء المتراصّة. لن تنسى أصابعه الماهرة العاطفة الجيّاشة لتلك اللحظات.

اللمس ذكرى رابعة.

محمولاً فوق راحات الفرح

ركض الطفل مسرعاً في الطريق الحجريّ.

تاركاً فيه مخاوفه ولُعبه

غرق في عناق حارّ

مع ثوب محبوب رسم على خدّه

تطريزاته المزركشة.

بداية شهر أيلول من السنة نفسها

بعد أيام أمضيتها أتأرجح ما بين الفرح والخوف، أكمل رسالتي. أرقص بالقرب من الهوّة. سعيدًا بالبقاء على قيد الحياة، بالإحساس مجدداً بالضّحكة تتفتّح في داخلي. يا لها من سعادة تلك التي شعرت بها ووجهي يلتصق بالأرض، بعد أن عثرت على كاڤالينو. هو من بقي لي، لم يتخلّ عني. أفرح إذ أكون وحيداً وفي الوقت ذاته ممتلئاً بالآخرين، بصورهم، بنفاد الصّبر على خلقهم وتشكيلهم ورسمهم. أعيد إليهم الحياة بإزميلي وموهبتي. أنا كتلة من الرخام، أضمّ في داخلي جسد شخص آخر. يناضل كي يخرج منه، ليكون في الهواء الطلق، جسدٌ سيتّخذ شكل تمثال إلى الأبد. ما أكثرهم في داخلي! أنا هُمْ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما كنت يافعاً، كنت على يقين أنّني متعدّد. لست واحداً، ولا اثنين، إنّما المئات. ليست مصادفة أن تكون أولى منحوتاتي «معركة القناطير». إنّها أفضل تمثيل لما يسكنني. أردت أن أعبّر بقدر ما أتاح لي الإزميل والمرمر، كمن يريد أن يقول للآخرين: هذا مشهدي الداخلي. أحياناً، أقبله، ولكن في أغلب الأوقات، هذا الجمع يكفّنني، يدوسني، وأغرق في خوف من الموت، خوف لا ينتهي. إنّها الهوّة، ومن حولها أرقص.

الخوف يترصّدني ويباغتني، ما بين كلب وذئب. أشعر به في جوفي، مقطوع الأنفاس، أغور في هوّة الصّمت السّحيقة، هوّة العدم، حيث يختفي كلّ ما سعيت إليه. تتراخى عضلاتي، ولوهلة، أفقد الوعي، يبتلعني المجهول وما لا يمكن تصوّره. ثم أستعيد وعيي وأنا أتساءل: هل جاءت اللّحظة؟ هل سيكون الإحساس نفسه؟ هل ما يزال الألم هنا؟ أو على العكس، هل سأستسلم للافتتان؟

أخي غويدو، أعترف لك بأنّني لا أريد أن أكون مؤمنا كي أهزم الخوف فقط. سيكون في ذلك إهانة لله.

أودّ أولاً أن أقبل العودة إلى هذه الأرض التي أنجبتني. ألتقي فيها بأولئك الذين أحببتهم، كي أغذيّ الأشجار من الدّاخل. أعود هكذا إلى غسق الحياة ولا أكون أكثر من تنهيدة تتراقص من فوق الهوّة.

المخلص لك دائماً

مايكل أنجلو بوناروتي

القمر

لم يرَ مايكل ميشيل منذ عدّة أسابيع. كلّ يوم كان يفكّر في الذهاب لرؤيته، لكنّه لم يفعل. ظلّ ينتظر أن يلتقي به كي يشرح له غضبه ويقدّم إليه سبباً معقولاً، حتّى ولو كان مُخترعاً.

في ذلك الصباح، كان يعرف أنّ إقامته تشرف على نهايتها. لم يبقَ له سوى بضع كتل ليختارها، كانت معظم القوالب في طريقها إلى الساحل، بل أنّ بعضها وصل إلى روما. عندما سيراها مرّة أخرى وسط ضوضاء المدينة، سوف يتذكّر أنّها جميعها استُخرجت من صمت الجبل.

شعر بالمحفظة التي خاطتها له ماريا لصق صدره. صنعتها على مقاس إنجيل أندريا الصغير. وها أنّه يحملها منذ بضعة أيام. لم يكن قد أكمل قراءته. لم تحن اللحظة المناسبة بعد. تردّد لمساءات عديدة، لامس الغلاف الجلديّ. تذكّر الكلمات التي خطّ تحتها، وفي آخر لحظة، تراجع. لا، لا يريد أن يعرف، ليس الآن، ربّما لا يريد أن يعرف أبداً. طلب من ماريا أن تخيط له هذا الكيس الصغير المزوّد بحمّالة طويلة بحيث يكون الكتاب لصق جلد بطنه. صارت تكفيه حركة صغيرة كي يستعيد ملمح أندريا اللطيف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في ذلك النهار وصل إلى المقلع من بين الأوائل. لم يكن قد مضى على شروق الشّمس إلاّ بضع دقائق. كان نور أيلول الذهبيّ يُلهب الغطاء النباتي الأخضر ومنحدرات الرخام المقتطعة. المكان مَهيب، وانسجام أبعاده طبيعيّ جدّاً. لو كان عليه أن يتصوّر كنيسة ذات يوم، فإنّ إلهامه سوف ينهل من هناك مباشرة، من قلب ذاك المقلع حيث تُشيد الطبيعة الحجر بجمال خارق.

«هل ثمة ملاذ للربّ أجمل من هذا الجبل المسلوخ؟»

شرد في تأمّله، ودّ لو يكون جزءاً من ذاك الضياء، من العالم الجامد الذي يعشق نحته. أليس حبّاً بالرخام، قبل كلّ شيء، غرس فيه إزميله وروحه؟

كان شارداً وراء أفكاره، فلم يسمع توبولينو وهو يقترب ويهمس:

- هذا جميل، أليس كذلك؟

أجفل مايكل ثمّ أجابه:

- هذا صحيح! إنّه يذهلني اليوم.

بقي الرجلان لحظة طويلة ينظران إلى جدار المرمر المتلألئ. وإجلالاً للجمال المحيط بهما، راح توبولينو يتحدّث هامساً:

- هل تعلم أنّ هذا المكان، منذ زمن طويل، كان يدعى القمر؟

لم يتوقف مايكل عن النّظر إلى الجبل، وطلب من صديقه أن يتابع. لم يترك توبولينو له المجال كي يرجوه:

- تخيّل وجوه الرجال الأوائل عندما سقطت أول قطعة من

جدار الجبل، كيف تلألأ اللون الأبيض، واكتشفوا هذه الحجارة الناصعة البياض الخارجة من جبل شديد الخضرة. لا بدّ أنّهم التفتوا كي ينظروا إلى القمر يلتمع في السماء الحالكة، وقال بعضهم لبعض إنّ قطعة سقطت منه ههنا. كيف كان بوسعهم أن يسمّوا المكان شيئاً آخر غير القمر؟ إنّهم على حقّ. ألا تظنّ ذلك؟ ربّما نكون نحن، دون أن ندري، مستمرّين في حفر القمر، بثقبه، بحزّه. وأنت تنحته!

توبولينو وكاڤالينو، بأسمائكما كأسماء الحيوانات، أنتما صديقيّ الشاعرين. في روما، لن تكونا هناك. لن تكونا معي..

تأمّلا الجبل بإعجاب لحظات أخرى إضافيّة. قبل الذهاب لموافاة الآخرين الذين بدؤوا عمل يومهم المعتاد. سوف يتذكّر النحّات «القمر» كمكان فريد يروي قصّته الرجال ويحبّونه بالشّغف ذاته.

مضت الساعات وانبثق الغسق. كان النحّات منهكاً من ضوضاء المعدّات والأصوات وهي ترنّ فوق المرمر. عاد إلى المكان حيث وقف صباحاً. تغيّر الضوء، كان عند الزّوال يمسي ذهبياً أكثر فأكثر. هبّت نسمة، قريباً ستعاود الخفافيش طيرانها ويعود المقلع إلى الهدوء.

رحل الرجال، الواحد بعد الآخر. أراد مايكل أن يبقى فترة أخرى وحده. قال لتوبولينو: «لا تنتظرني».

عندما رحل الجميع، أدرك أنّ اللّحظة قد حانت. رفع الحمّالة عن عنقه، سحب المحفظة من تحت قميصه، وأخرج منها الإنجيل برفق.

عزيزي أندريا، ماذا لديك أيضاً لتقوله لي؟

فتح الصفحات برفق. وحدّثه أندريا بريشته الرفيعة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في أماكن مختلفة، كان قد خطّ تحت عبارات من إنجيل يوحنّا ليقول هذا: «هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله، ليتمجّد ابن الله به».

«الحقّ الحقّ أقول لكم، إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتمُت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتِ بثمر كثير».

«الآن، حيث أمضي أنا، لا تقدرون أن تأتوا، لكنّكم ستأتون فيما بعد».

الذّباب

ظلّ مايكل أنجلو يحمل الخُرج الصغير. ولم يعد يتردّد في أن يفتح الإنجيل ليقرأ ويعيد القراءة. كان يفعل ذلك وهو سائر في الطّريق إلى المقلع. وذات يوم، وهو يرفع عينيه عن الصّفحات المقدّسة، لاحظ جلبة غير اعتيادية.

لمح توبولينو يشير إليه بكلتا يديه، فأسرع الخطى.

- انظر، ماذا سقط هذه الليلة!

كانت هناك كتلة صخريّة هائلة الحجم ترقد فوق الأرض، وتُرى على حوافها الآثار البنّية للأخشاب وقد انتفخت بفعل الماء الذي سكبه الحجّارون، ما عجّل بسقوطها.

اقترب من الحجر وداعبه كان أعلى منه، بل فائق الطّول. وحبيْباته لامعة ساطعة. في المقابل وقف توبولينو على جانبٍ من الحياد، فلاحظ نظرة مايكل أنجلو وقد غدت ثاقبة فجأة.

- إنّه رائع، أليس كذلك؟

- إنّه مثاليّ، مثاليّ وحسب، أجاب النحّات.

كان هناك رجال يتسلّقون الجدار على امتداده وقد رُبطوا بحبال كي يدحرجوا الأنقاض الأخيرة. دون أن يُصبحوا لعبة بيد القدر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سوف يداعبون بأزاميلهم الحجر ذا الطبيعة المتقلّبة. لكلّ واحد منهم كلمة يقولها له، اسم يلقبّه به، لمسة يلاطفه بها. فالخطر يجيز كلّ أشكال التشاؤم. كانوا فوق هذه المساحة الناصعة البياض أشبه بذبابات صغيرة تلتصق بها، تروح وتجيء.

كُرّس الجوّ العامّ في ذَلك النّهار للفرح. يندر أن يقدّم لهم الجبل هديّة كهذه. حتّى أنّ مايكل جعل يقول في نفسه إنّ الجبل يتلاعب به. فبعد أن انتهى من اختيار قوالبه الرخامية كلّها تقريباً، سوف يتوجّب عليه أن يعدّل من مخططاته، إذ لا يُعقل ألاّ يستخدم هذه الصخرة العظيمة من أجل تماثيل القبر العليا.

أخرج مفكّرته، وقال لتوبولينو: «هذا الرخام لي، أقصد، لقبر جول الثاني!»

قهقها معاً. كانا يعرفان تماماً أنّ هذا القالب له. أخذا قياساته وأطالا التفكير. كم تمثالاً يمكن أن يستخرج منه؟ يجب قصّه بسرعة، فهناك سفينة تُحمّل الأسبوع القادم.

بدا الجميع مشغولين، فهم تتملّكهم الرّغبة نفسها في ردّ الجميل إلى الجبل لما منحهم. لا يمكن أن يستقرّ الحجر بين يدين أفضل من يديّ النحّات. معلّم، ومعلّم عظيم. رأوه خلال أشهر طوال، بين الأوائل دائماً، يتابع كلّ حركة من حركاتهم، وينتقد باستمرار طريقتهم بالإجهاز على المرمر. يقول لهم: «دعوا العروق تقودكم، وإلاّ سوف تهشّمونه!». كَرِهَهُ البعض، نعتوه بملقي الدّروس، ثمّ أدركوا أنّه يفعل ذلك حبّاً في الحجر وفي الجبل فقط. كان يتحدّث عنه كمن يتحدّث عن جسده، ومثلهم، شُغل قلبه بالجبل. على مرّ

الأيّام، شعر بمقاومتهم تتراجع، حتّى بات يشكّل جزءاً من عائلتهم الكبيرة. لم يعد نحّاتاً فحسب، بل حجّاراً أيضاً. صار يُستقبل بحرارة، الحرارة نفسها التي كان يشعر بها في زمن طفولته، في مقالع بييترا سيرينا. وفي نهاية النهار، عندما يتجمّعون في صمت عميق للصّلاة وشكر الجبل على عطيّته الثمينة، يكون مايكل بينهم. يمسك بعضهم بأيدي البعض الآخر، يتلون بضع كلمات، وبحميّة واحدة، يوحّدون أفكارهم تكريماً للآلهة الخضراء ذات القلب الأبيض.

كان مايكل أنجلو سعيداً جدّاً، حتّى أنّه أعطى بضع دوقيّات لأولئك الأصغر سنّاً وأرسلهم إلى القرية لرؤية ماريا كي تحضّر لهم ما يحتفلون به للمناسبة. كان الحجّارون مدهوشين. لم يكن النحّات محبّاً للظهور في مظهر الكريم قطّ. في البدء انزعجوا، ولكن لمّا عاد الشباب وأيديهم محمّلة بالخمر والخبز ولحم فخذ الخنزير المقدّد والعنب، كالَ الجميع المديح لذاك الذي غدا فجأة في غاية السّخاء.

قال مايكل أنجلو لتوبولينو بمكر: «ليس من العسير أن تعطي. يكفي أن تفعل مثل الجبل: استسلم للسقوط».

ابتسما. ثمّ أردف النحّات: «من المؤسف ألاّ تكون كيارا هنا كي تغنّي لنا إحدى أغنياتها الجميلة!»

- هل تعلم أنّها كتبت واحدة موضوعها يدك الرخاميّة! تقول إنّها كنزها! في البداية، شعرتُ بالغيرة بعض الشيء من الاهتمام الذي أبدته حيالها، لكن الآن، قبلتُ بالأمر. يبدو أنّك سوف تظلّ بيننا حتّى بعد رحيلك...

جلسا بالقرب من بقايا الحجارة. وكان البعض جالساً، والبعض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآخر مستلقياً على قوالب حجريّة صغيرة عوضاً عن الطّاولات.
صاح توبولينو:

- نحن كالأباطرة الرومان! كلّ ثروات العالم تحت أنظارنا!

انطلقت صيحات وتهليلات وعبارات: «عاش الرومان»، لا بل سُمعت عبارة «يوليوس قيصر، نحن نفتقدك!» لقد بدأت الخمرة تدبّ في أذهانهم، ولكنّها لم تفسد فرح قلوبهم العفويّ والغامر.

في ساعة متأخّرة من المساء، قفلوا عائدين إلى القرية، الواحد يتأبّط ذراع الآخر، وهم يغنّون على امتداد الطريق. ولدى وصولهم إلى السّاحة، تفرّقوا ودخل كلّ منهم إلى بيته.

رأى مايكل أنجلو عندئذ خيالاً صغيراً يخرج من الكنيسة ويعبر من أمامه راكضاً. ما إن تعرّف عليه حتّى صاح به:

- ميشيل، انتظر! ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخّر؟

وقف الصبيّ أمامه ويداه على خصره وأجاب بنبرة ساخرة:

- أتعلّم القراءة يا سيدي.

العدوى

في صباح اليوم التّالي، لم يقاوم مايكل رغبته في الذهاب لرؤية الكاهن كي يطرح عليه سؤالاً. دخل إلى الكنيسة ولم يكن قد مرّ على فتح أبوابها وقت طويل. كان هناك امرأة عابسة الوجه، تجهد في تلميع المقاعد بخرقة قماش. بينما الخوري مشغول عند الهيكل.

عندما تنحنح كي يعلن عن وجوده، التفت الرأسان ناحيته. داخل عتمة دار الكنيسة، احتاجا بضع لحظات للتعرّف عليه، ثمّ فتح الخوري ذراعيه دلالة على الترحيب به.

- يا معلّم، كم يسرّني أن أراك في كنيستنا المقدّسة! ما الذي دعاك للمجيء مبكّراً هكذا؟ آمل ألاّ يكون ما جاء بك أمر خطير.

وجد النحّات نفسه محرجاً من الاعتراف له بأنّ فضوله هو الذي دفعه إلى هنا، فأجابه متردداً:

- لا شيء يدعو للقلق، اطمئنّ يا أبتي. هي رغبتي في الاحتماء بظلّ المسيح لا غير.

أشار إلى المصلوب الذي كان فوقهما مباشرة، يتمايل برفق فوق صليبه المعلّق. ثمّ استأنف: «إنّه في غاية الجمال».

نظر إليه الكاهن نظرة قاسية، يؤاخذه بها على ما بدر منه:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا سيما أنّه تألّم من أجلنا. وصُلب!

راقب الكاهن. لم يكونا على وفاق بالتأكيد. تردّد في طرح السؤال عليه، ثمّ تراجع عن موقفه، وجثا إلى جانب أحد المقاعد.

أصلّي قليلاً، وأتحدث لاحقاً.

أغمض عينيه، وفي طراوة دار الكنيسة، غاص في ذاته. كان يتوقّع رحيله إلى روما بعد بضعة أيّام. هو حزين وسعيد في الوقت ذاته. حزين لأنّه يغادر هذا الجبل الرائع. وسعيد لأنّه سيضع إزميله أخيراً على قوالبه الرخامية ويعاود النّحت من جديد. سيكون في صميم الحجر، في صميم الجسد. يبدع كي يشعر بالحياة تعتمل في داخله. بالطّبع سوف يفكّر في توبولينو وكاڤالينو وميشيل، ثم ستتشوّش وجوههم. يعلم جيّداً أنّه لا يستطيع أن يثق بذاكرته.

يجب ألاّ أفكّر في ذلك الآن.

وقف وانضمّ إلى الخوري، وكان لحظتها يمسّح على الغطاء فوق المذبح.

- هل صحيح يا أبتي أن ميشيل يتعلّم القراءة معك؟
- كيف عرفت؟ كان يريد إبقاء الأمر سرّاً.
- هو الذي قال لي.
- هذا الصغير ميشيل غير معقول. جاء إلى هنا منذ بضعة أسابيع ليقول لي إنّ عليه أن يتعلّم القراءة، سألته لماذا، أجابني إنّه يريد الرحيل ذات يوم من هذه القرية «البلهاء»، هذه هي الكلمة التي قالها، يجب عليه أن يقرأ ويكتب. قلت له إنّه على حقّ تماماً. ليس فيما يخصّ «البلهاء» بالتأكيد، إنما بخصوص القراءة!

بدا الخوري كأنّه يضحك، واهتزّ ثوبه الكهنوتيّ بصمت. أوّلَ مايكل حركته كضحكة ورِعة. واستأنف رجل الكهنوت:

- لقد فهم فوراً. لم تعد قراءة اللاتينية سرّاً يخفى عليه. بدأنا القراءة بالإيطالية. تسكن هذا الصغير رغبة جارفة، نادرة بالنسبة إلى سنّه. لا أعرف تفسيراً لذلك. هل تعرف أنت شيئاً؟ يحدّثني مراراً عنك، حتّى ولو أنكر ذلك. إنّه معجب بك جدّاً.

- لا أعرف. تحدّثنا بضع مرّات، لكنّه لم يقل لي شيئاً يتعلّق بمستقبله في القرية أو في المدينة.

- أو فيما بيننا، في قلب الكنيسة! تذكّر، نحن من نمتلك المعرفة العليا. وهذا الصغير قد يصبح عضواً جديداً بارعاً جداً في مقاعد الڤاتيكان.

- بالتأكيد يا أبتِ. أشكرك جدّاً على الوقت الذي منحته لي. سأسلك الآن طريقي إلى المقلع.

حيّاه مايكل أنجلو واتجّه نحو الباب. مشى بسرعة. كان يستعجل لقاء الدّرب، دربه. غير أنّه لحظة كان يهمّ بدفع دفّة الباب الكبير، قال له الخوري بصوت قويّ دوّى تحت القباب:

- تلقّيت رسالة من الأخ غويدو!

توقّف مايكل أنجلو تماماً. احمرّت وجنتاه، لا يجرؤ على الالتفات. تابع الصوت القويّ:

- كان ذلك منذ بضعة أيّام، وهي، فضلاً عن ذلك، بخصوصك.

استدار النحّات نصف استدارة، محاولاً قدر الإمكان تمالك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نفسه. تأمّله الخوريّ ثمّ أضاف:

- مايكل أنجلو، تبدو مضطرباً! لنجلس بضع لحظات!

جلس الرّجلان جنباً إلى جنب في صمت الكنيسة. كانت المرأة التي تلمّع الخشب قد رحلت دون أن يلحظا ذلك. بدا صوت الكاهن خفيضاً يبعث على الراحة.

- حكى لي الأخ غويدو في رسالته عن الوباء الرّهيب الذي ضرب الدّير. كنتَ هناك، أليس كذلك؟ سمعتهم يتحدّثون عن إنجازاتك في التّشريح. يجدر بي القول إنّني لا أوافق عليها بتاتاً. يجب أن يبقى الجسد سليما ليلاقي أرضه الموعودة. ولكن هذه قضيّة أخرى. لنعد إلى الأخ غويدو.

كان مايكل أنجلو وهو يصغي إلى الكاهن، يتابع تسلسل أفكاره. مات أندريا بهذا الداء إذاً. لا شكّ أنّه كان يعلم بمرضه، وفي سبيل أن يجد القوّة لمجابهة الموت، كان يخطّ تحت عبارات من إنجيله. كي يفهم ويحتمل.

سمع النحّات الصّوت المنخفض يقول له:

- كان الأخ غويدو آخر شخص أصيب بالعدوى. لكنّه بقي على قيد الحياة. يظنّ أنّ الدّاء فقد قدرته بانتقاله من جسد إلى آخر. طلب منّي أن أخبرك بذلك، ربّما تفهم عندئذ. أضاف أيضاً أنّ الطريقة التي طردت بها المبعوث ظلماً، قد أثارت ضجّة كبرى في روما، ولهذا السّبب، كتب لي خصيصاً.

التفت الكاهن إلى مايكل أنجلو وسأله: «هل أنت نادم على هذا العمل الأخرق؟»

طأطأ النحّات رأسه وردّ محاولا أن يضفي على كلامه كلّ مظاهر الاقتناع:

- بالطبع يا أبتي!

ثم نهض كي يعاود الذهاب مجدداً. لكنّ الكاهن، عوضاً عن تحيّة الوداع، قال له:

- عليك أن تهتمّ بمعالجة هذا الكبرياء وهذا الغضب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المحادثة

عبر مايكل أنجلو القرية باتّجاه الطّريق المؤدّية إلى المقلع شارداً، معكّر الخاطر، ومذهولاً.

عندما وطئت قدماه درب الجبل أخيراً، توقّف. تردّد للحظات، ثم اختبأ وراء الأشجار الحافّة بالطريق الترابيّة. مستتراً بالأوراق، استند إلى جذع شجرة. كانت ساقاه ترتجفان، وعلى وشك الانهيار. ترك نفسه ينزلق إلى الأرض. جلس فوق التراب النديّ المغطّى بالسرخس وحبّات البلّوط. انقضّ عليه اليأس فتملّكه. اعتراه إحساس بأنّ كلّ حنايا جسده، لا بل كلّ ذرّة منه غارقة في موجة من الحزن. وعندما طفق يبكي، أدرك أنّ الكلمات التي بحث عنها بيأس منذ طفولته، تجري على خدّيه، مشكّلة جملة حارقة تحزّ جلده.

لبث يبكي بحُرقة، تماما كما فعل في الزّقاق حين اندفع وراء الرؤيا، فإذا بالحزن، وكان قد حاول مرارًا أن يهرب منه، يكتسحه وتفيض به عواطفه.

أندريا، كأنّني تحقّقت من موتك أخيراً، كأنّني تركت الموت حرّاً يخرج من صدري. الكاهن، دون أن يدري، ودون أن يسمّيك، أجاب عن السؤال الذي بقي يطاردني منذ شهور طوال. حين تحدّث

عنك وعن هذا الوباء، لقد جعل ماكنت أظنّه خيالاً حتى الآن أمراً واقعاً.

مكث مايكل جالساً برهة، مثنيّ الرّكبتين، مُسندًا رأسه على ذراعيه المتصالبتين، تلفّه الرّطوبة وصمت الغطاء النباتي. عاد إلى التراب ونسي الحجر. ذات يوم، حجره الحيّ أيضاً سوف يتفتّت ليغدو دبالاً، سحباً ماطرة، وأزهاراً هشّة.

حين سكتت شهقات بكائه واضطرابه، عاد ليسلك درب المقلع. قال في نفسه إنّ هذا الصعود هو الأخير، وإنّه قريباً سيترك الجبل لأشعّة القمر وحدها، ولن يحمل معه منها سوى الذكريات.

ما إن وصل إلى الأعلى حتّى ناداه الحجّارون. كانوا يريدون تسوية آخر التفاصيل. قُرنت الثيران بعضها إلى بعض، وتوجّب عليه أن يذهب من الغد إلى البحر من أجل تحميل آخر الكتل الحجريّة. كان النّور في ذاك الصباح نقيّاً، يكاد يكون قاطعاً.

جعلته الانشغالات ينسى لفتراتٍ انفعالات ساعات النّهار الأولى. وحين يتذكّرها عرَضا، كان يسرّ لأنّه استطاع البقاء على مسافة بعيدة منها.

عليّ أن أنجح في العمل، وألاّ أستسلم لليأس.

في المساء، رجع مع الآخرين إلى القرية منهكاً. وعند مروره بتلك الأيكة التي استقبلت حزنه في الصّباح، ابتسم. فجأة، شعر بالرّغبة في العودة مرّة أخيرة إلى المرج الشاسع كي يملّي عينيه من شجرة السنديان العظيمة، والعشب الأخضر اليانع من حولها. ذهب إلى هناك كي ينحت في ذاكرته كلّ ملمح. كان يريد أن يخبّئها في أعماقه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليلوذ بها بحثا عن الراحة فيما بعد، عندما يعامله البابا مثل كلب. ألمْ يكن كلباً؟ لم تكن عين كاڤالينو تخطئ قطّ. لمحَه هناك بمجرّد أن ذكره. رآه يعدو متعرّجاً في البرّية، وقد غدت تحت أنوار الشمس الأخيرة صهباء. فوافاه وهو يصيح:

«كاڤالينو، كيف حالك؟»

- إيه، بخير، كما ترى، أنا هنا بصدد العدو معها. أنت لم تعد تراها لأنّها اتّخذت مكانها في داخلي. ألا ترى بأنّني أكبر قليلاً الآن؟

أجابه مايكل أنجلو حائراً:

- إذا كان هذا ما تشعر به، فلا بدّ أنّه صحيح...

- أنت تعلم أنّها مدفونة تحت الشجرة الكبيرة تحديدًا. عندما جاء صاحبها لأخذها، كنت ما أزال مستلقياً إلى جوارها. رجوته أن يدفنها هنا. وافق. في كلّ الأحوال، كانت ثقيلة جدّاً ولم يكن من السّهل أن تُنقل. عاد ومعه فأسين، وحفرنا، حفرنا... ومنذ ذلك الحين وهي هنا.

وهو يتكلّم، أشار بيده إلى شجرة السنديان الكبيرة ليميّز مايكل أنجلو تحتها تلّة من التّراب المثار حديثا. ثمّ أومأ برأسه وهو يقول بكلّ هدوء.

- جميل أن تكون هنا...

لم يعلّق مايكل بشيء، فاستطرد:

- ازداد طولي لأنّها دخلت بكاملها إلى داخل روحي. أنا أحملها،

وهي ترى ما أراه. أتحدّث إليها حتّى وإن كانت دائمة الصّمت، ولكنّي أعرف أنّها تسمعني. جزء منّي معها، وجزء منها يعدو معي.

- أعرف يا كاڤالينو. أنا راحل قريباً. سوف أفكّر بك.

لم يجد مايكل أنجلو الكلمات ليشرح له كم ساعدته محادثاتهما، وكم كانت سذاجته تغلب حقيقة الآخرين. تحدّثا قليلاً بعد ذلك، ثمّ سلّم النحّات على صديقه وعاد إلى القرية.

ثمّة شخص آخر كان يريد التحدّث إليه، إنّه ميشيل. انتظره بالقرب من باب الكنيسة. خرج الصبيّ أخيراً وتوقّف فجأة حين رأى خيال النحّات يرتسم فوق رخام الواجهة. لم يترك له مايكل المجال كي يهرب وقال فوراً:

- ميشيل، جئت كي تغفر لي مرّة أخرى كبريائي وغضبي. وكذلك كي أهنّئك على تعلّم القراءة. أنت تحدّد خيارات كنت أعجز عنها حين كنت في سنّك.

اقترب ميشيل، وحدّق في وجه النحّات كي يكتشف صدقه. ورأى مايكل أنجلو فجأة زرقة عيني الطّفل ترتعش، ثم يرتمي كل جسده فوقه. أحاطه بذراعيه وتابع هامساً:

- هل تريد أن تأتي معي إلى البحر غداً؟

لم يُجب، لكن مايكل أنجلو أحسّ وهو مدفون في صدره بإيماءات رأسه الصغير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الضفيرة

بذهن رائق وقلب مفعم بالفرح، دخل النحّات غرفته في ذلك المساء. أسند مرفقيه إلى النّافذة وراح يتأمّل سماء الليل المرصّعة بالنّجوم. كم من الألوان والظلال المتغيّرة شاهد منذ فتح النافذة؟

استسلم لحزن اللّحظات الثمينة التي ستتلاشى عمّا قريب في ضباب النّسيان.

أثناء غيابه، وضعت ماريا طبق الطعام. كانت الشمرة المطبوخة على نار هادئة قد بردت. أكل منها بضع لقيمات، ثمّ آثر الاكتفاء بالخبز. رغيف شهيّ من الدّقيق الأسمر تبدع ماريا في إعداده. غمس كسرة خبز في كأس نبيذ، فلانت واحمرّت. كان لديه ما يكفي من الوقت ليحملها إلى فمه ببطء ويتمتّع بطعمها اللّذيذ. بالقرب من السكين هناك الإنجيل الصغير وكتاب بترارك مخبّآن داخل خرْجه، هما أيضاً سوف يسلكان معه الطريق إلى روما.

أطلق تنهيدة وهو يتذكّر لحظات النّهار المختلفة. ثم استلقى منهكاً وغفا. وفي الحال أخذه حلم.

في عتمة غرفته التي سيغادر بعد بضعة أيّام، ظهرت تلك المرأة التي لم يعد يطمع في رؤيتها، تلك التي لم ينادها منذ طفولته.

في دفء الغرفة وقد تكوّرت روحه على ذاتها، تجرّأ وداعبت شفتاه الكلمة المحبوبة، الكلمة السجينة عمداً داخل صندوق. كلمة بسيطة وعذبة. بسيطة إن كان يكفي أن يفتح شفتيه مرّتين للتلفّظ بها. حرفا «ميم» بينهما حرفان، صوتان، أوّلهما مفتوح والثاني مغلق. كلمة، هي بداية الحبّ، وأصل كلّ حبّ يأتي بعد ذلك.

همس بها في نومه، ومن تلك الجرأة في لا وعيه، ظهرت الصّورة. كانت تدير له ظهرها، تنسدل عليه جديلة شعرها البنّية الطويلة. يدا الطفل تلاطفانها. تحلّان خصلاتها فتنسدل متماوجة.

لفظ الكلمة ثانية. التفتت وابتسمت له. التهمها بعينيه. إنّها هنا، كما في الماضي. أصبحا الآن في نفس العمر تقريبًا.

نفرت دموع الصّباح من بين جفني النحّات المغمضتين. كانت بشرتها ناصعة البياض، شفّافة ناعمة. ونظرتها بلون الخريف وشفتاها رقيقتان. كيف استطاع أن ينساها كلّ هذا الوقت؟

ابتسمت له وقالت إنّها كانت بانتظاره، وإنّها لن تتركه بعد الآن أبداً.

انسدل شعر المطر.
من العاصفة، وُلد أمل لا ينتهي
بعودة حبّ، خرج من النسيان
ليعيد إحياء ذاكرة الطفل
في قلب الرجل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرّؤيا

لم يكد مايكل أنجلو يغفو حتّى استيقظ من جديد. كانت هناك. رآها. طفقتْ يداه تبحثان عنها في العتمة. وإذ كانتا تجوسان في الظّلمة الكثيفة همس: «أين أنتِ؟ ابقيْ قليلاً!»

سمع في تجويف أذنه صوتها يقول: «أنا هنا».

غمرته الكلمات التي لم يتوقّعها بسعادة لا توصف. بحث متلمّساً عن شمعته كي يضيئها. ترنّحت الشعلة، وطفا وجه أمّه في الغرفة. تشبّثت يداه بالملاءات. شعر بالرّغبة في أن يصرخ ويوقظ كلّ المدينة ليخبرها أنّها عادت أخيراً، ولن تتركه.

نهض وقد ملأه عزمٌ جديد. هناك مكان وحيد يمكن أن يستقبل فرحه هذا: المقلع.

خرج وعبر القرية في عتمة اللّيل الحالك. في أوّل الطريق، كانت أشعّة القمر تقود خطواته. جدّ السير تدفعه السعادة، مبهوراً بوجه أمّه عنه لا يغيب، وقد أصبح في متناول يده وفي متناول ذاكرته. كان يناديها باستمرار، وهي تبتسم له. ابتسامة تجبره على المصالحة وترك مخاوفه القاسية التي لا تعرف الرّأفة. مشيا معا كما كانا يفعلان في الماضي، عندما كانت تأخذه بين ذراعيها كي تواسيه.

أحسّ بالفرح البسيط لأنّه على قيد الحياة، وبمعجزة الحلم الذي انتزع الابتسامة من حُضن الألم.

«لم يعد هناك ألم. أنا أرقص فوق عشب طفولتي».

راح مايكل أنجلو يركض. ومن فرط سعادته كان يتعثّر، ثمّ ينهض من جديد ويقول لنفسه، لو قدّر لي أن أموت في هذه اللّحظة، لقبلت الموت بكل سكينة.

«إنّها هنا، في داخلي، لن تتركني بعد الآن».

في سكرة غبطته، شمّ العطر، سمع الضحكة، تذوّق الذكرى، لمس ثوبها وشبع من وجهها. أمّه كانت هناك، بكامل حضْرتها.

عندما وصل إلى المقلع، لم يصدّق عينيه. كانا هناك معًا: أندريا وأمّه، يطلاّن من أعلى الجبل. تمثالان هائلان من المرمر، منحوتان في صخرة واحدة، ينظران إلى الاتّجاه نفسه: البحر.

أذهلت النحّات الرؤيا. جثا وبدأ يحدّق فيهما. كانت أمّه تقف شامخة، يغطّي رأسها وشاح رقيق. وبين ذراعيها أندريا، جريحاً وعارياً، يغمر السّماء الرّحبة بنظرة أخيرة، قبل أن يغرق في أعماق الأبديّة. هذا التمثال العملاق هو تمثال اللّحظة الأخيرة، ولن ينجزه أبداً، مع ذلك، كان تحت ناظريه، يعلو نحو السّماء، حاملاً معه نصف الجبل.

أدرك بغتة أنّه كان مخطئاً تمامًا، وأنّ أمّه وأندريا بحضورهما الجلموديّ يدلاّنه على الطريق. في فنّه، لطالما كان ينحت الحجر كي يحوّله إلى جسد، كي يصبح لحما ودماً فحسب. وها قد أدرك أنّ شخوصه تريد أن تصبح رخامًا. وأنّها لا ترغب بشيء سوى أن ترى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجسادها تتحجّر وتخشوشن، كي تعود إلى ما كانت عليه حقيقة: ذكريات ألفيّة متحجّرة، حبيسة في قلب الجبل الأبيض.

«ليتحول الجسد إلى حجر، لا أجبره على شيء آخر».

دخل مايكل في تهويمة غريبة عنه لم يكن قد عرفها حتّى ذاك الوقت. راح يمشي في كلّ الاتجاهات، يرقص، يلمس جدران الرخام الصخريّة، يرتطم بها، ثمّ يرفع عينيه ويفتتن برؤيتها مجدداً.

«أنتما هنا، لن تتركاني!»

طول الليل، كان يركض، ويغنّي، ويصيح من فرحه حتّى الإعياء، إلى أن غفا على الأرض مباشرة وأيقظه توبولينو مربّتًا على كتفه بلطف وهامسًا: «ماذا تفعل؟ هل نمت هنا؟ كنت أظنّك ذاهباً إلى البحر!»

استيقظ دون أن يعرف أين هو. نظر إلى وجه الحجّار والجبل المحيط به. اختفى العملاقان. انقبض قلبه، لكنّ ذاكرته المتّقدة أسعفته في الحال بصورة محدّدة.

وثب على قدميه، وقبل أن يرحل، قال لتوبولينو: «من فضلك، جد لي خشب زيتون ومفصّلتين».

الرّمال

عاد مايكل أنجلو إلى القرية. وبعد أن طلب من ماريا أن تهيّئ له دابّته، ذهب للبحث عن ميشيل. كان الصبيّ جالساً على عتبة منزله. وما أن رأه همس:

- ظننتك لن تأتي أبداً! أنا بانتظارك منذ الفجر!

- تأخّرت عنك بسبب ليلتي المضطربة. لكنّني مستعدّ، هيّا بنا إلى الطريق!

ها هما فوق الحصان، على الطريق المتعرّجة المؤدّية إلى البحر. الصغير في الأمام والنحّات خلفه يضمّه إليه بقوّة بيد، ويمسك الأعنّة باليد الأخرى. لا يتكلّمان، يتابعان طريقهما بصمت. سعيدين بالتأرجح على وقع سير الدابّة.

حتّى ذلك الحين، لم يكن مايكل أنجلو قد عانق طفلاً لمدّة طويلة هكذا. كان مضطرباً من هشاشة هذا الجسد الصغير الذي يحاول أن يلتصق به في استسلام دون أن يبدي أيّة مقاومة تجاه القوّة التي كانت تحميه. أيضًا، لم يكن مايكل قد حمى أيّ كائن من قبل. أمّا ميشيل فقد تمكّن من أن يندمج كُليًّا في رقصة الحصان، وفي تلك اللّحظة التي يتقاسمانها. الحاضر المتلاشي في غبارٍ ترفعه حوافر الدّابة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان مشوّش البال بعدُ جرّاء رؤيا اللّيلة الماضية. رآهما بوضوح، اعتراه إحساس لا يوصف جعله على يقين من أنّه لن ينحت بعد الآن كما كان يفعل في الماضي أبداً. أن ينجز تمثاله ويصقله، لم يعد لذلك أهمّية. ما يهمّ الآن، هو هذا الرابط الجديد بين روحه والمادّة، بين أولئك الذين يعجّون في داخله والحجر. لم يعد يريد أن يعقلهم بسلطانه مثل دوابّ، لم يعد يريد أن يكون الحكم، يريد فقط أن يقطع الرخام ليخرج منه أوّل نفس. على ذهنه البشري أن يستسلم لإرادة الجماد. لن يُخضع بعد الآن الجمع المحتشد في مخيّلته لإرادته.

بعد عدّة ساعات على الطريق، وصلا أخيراً. أشرق وجه ميشيل حين رأى البحر الأزرق الواسع. فتح فمه، لكن لم تصدر عنه أيّ كلمة تعبّر عمّا كان يحسّ به. لا بالإيطاليّة ولا باللاتينيّة.

شدّ على يد مايكل أنجلو، وسارا على الشاطئ، جنباً إلى جنب. قرب البحر، خلعا حذاءيهما، ودائماً في صمت ، انغرست أقدامهما العارية في الرّملَ النديّ. تقصّيا الأفق بحثاً عن تخوم البحر. كانت رياح الخريف الباردة تعبث بشعريهما. رياح تهمس في آذانهما وتمتزج بغناء الأمواج. موسيقى يكتشفها ميشيل، موسيقى البدء، موسيقى الولادة.

جثا مايكل أنجلو إلى جوار الطفل وقال له أنّ عليه الذهاب إلى السّفن، على مسافة قريبة من هنا، كي يشرف على آخر الحمولات. ثمّ أضاف مبتسما: «ابقَ هنا إذا أردت. تستطيع أن تلعب أو تبحث عن القواقع. تلك التي أعطيتك إيّاها، أخذتها من هنا».

-احتفظت بها، خبّأتها مع الرّسم.

لعب ميشيل لساعات طوال دون أن يشعر بالوقت كيف مضى. كان بين الفينة والأخرى يلقي نظرة نحو السّفن ليتحقّق من أنّ مايكل ما يزال هناك، ثم يعود ويوجّه انتباهه نحو البحر.

وافاه النحّات آخرَ الضّحى، يداه مثقلتان بالفاكهة والسّمك المشويّ. كانا جائعين، فأكلا بشراهة. لعقا أصابعهما بتمهّل. بعد أن أنهيا طعامهما، نحت مايكل أنجلو في الرمال وحوشاً بحرية مخيفة، لا لشيءٍ إلاّ ليسمع ضحكة الطفل. تلك الضّحكة التي أغرقته ذات يوم في حديقة ذكرياته.

كان ميشيل يقطع رؤوسها بقطعة خشب صغيرة، يزينها بالقواقع ويقهقه ضاحكاً كلّما ابتلعها البحر ويقول متعجّباً: «اصنع المزيد. أعطِ البحر ما يأكله!»

وكان مايكل يذعن دون ملل.

فجأة، لاحظ أنّ الطّفل لم يعد يضحك. نظر إليه. التقت نظرات الطفل بنظرة النحّات، ومن خلال الدّموع التي ملأت عينيه، قدم له امتناناً لا حدود له، امتناناً صامتاً. ولم يعد يسمع سوى صوت الزّبد يتغلغل في الرمال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرّحيل

أمضى مايكل أنجلو الليل بطوله ينحت خشب الزيتون الذي أحضره له توبولينو. هو راحل صباح اليوم التالي، ولم يعد لديه الكثير من الوقت كي ينهي عمله. على نور الشّمعة كانت شذرات الخشب وقد غزت المنضدة ترتعش من هوى الشعلة.

في تلك الليلة الأخيرة، لم يغلق النحّات النوافذ ولا الأبواب. ترك السّماء تجتاح غرفته. بين الحين والآخر، كان يضع إزميله، ينظر إلى النّجوم ويصغي إلى فرقعة الجذوع داخل المدفأة.

«من يقول إنّني أنحت صندوقاً، صندوقاً ثانياً..».

لم يستطع توبولينو ألاّ يسأل ماذا سيفعل النحّات بالخشب. تردّد مايكل أنجلو في أن يحكي له كلّ القصة: أمّه، ذكرياته، حجره الحيّ. رأى الحجّار نظرة صديقه تختلج ثم تتماسك ويصدر صوت دافئ: « إنها لميشيل، لعبة طفل..».

لم يلجّ توبولينو في السؤال.

كان مايكل أنجلو يعلّق الغطاء بواسطة مفصلتين صغيرتين. أما الصندوق ذاته فصغير وبلا زخرفة. وضع في داخله ورقة مطويّة. عندما يحين الأوان، سوف يعطي كلّ شيء لميشيل.

انبلج النّهار تحت المطر، في الأثناء، جاء الجميع لوداعه. قدّمت لهم ماريا الشراب حول المدفأة. كان هناك توبولينو، وكيارا، وكاڤالينو، وكلّ الآخرين، أولئك الذين رافقوه خلال أشهر طوال، حتى الكاهن كان هناك.

معاً، قرعوا الكؤوس على نخب نجاح مشروع النحّات. أمل الجميع أن يقدّر جول الثاني قيمة الرخام والعمل الذي قدّمه كلّ واحد منهم في سبيل أن يرى القبر النّور.

كان مايكل أنجلو يستعجل الرّحيل. فهو يكره مواقف الوداع، وروما تناديه. يجدر به أن يكون هناك، ولم يعد لبقائه موجبًا. سلّم على هذا وذاك، عانق كاڤالينو وضمّه بين ذراعيه طويلاً. همس في أذنه إنّه لن ينساه، وإنّ ذاكرته قد عادت إليه: «لن تغادر أفكاري»، قال له بعزم.

إثر ذلك، آن أوان رؤية ميشيل. كان مايكل قد أعطاه موعداً في الاصطبل، وها هو الصبيّ هناك يلعب مع الأحصنة. ما إن لمح صديقه النحّات حتّى جرى نحوه وهتف:

- متى ستعود؟

- لا أعرف يا ميشيل، ولكن كي يمضي الوقت أسرع حتّى لقائنا المقبل، أحضرت لك شيئاً. وهو أيضاً لشكرك.

- على ماذا؟

يعرف مايكل أنّه لن يجد الكلمات. لقد نحت هذا الصندوق ليضمّنه كل ما هو غير قادر على قوله. أخرجه من خُرجه ومدّه نحو الصبيّ قائلاً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– هذا صندوق الذكريات، وهو بلا قفل أو مفتاح. يمكنك فتحه وإغلاقه على هواك.

فتح ميشيل الغطاء:

– ثمّة ورقة في داخله. هل هذا رسم؟

– لا، شيء كتبته لك، الآن، بما أنّك تعرف القراءة.

بعد صمت قصير، أردف مايكل أنجلو، وكان بصوت متقطّع:

– عندما كنت طفلاً، كان لديّ صندوق شبيه إلى حدّ ما بهذا، ولكن، شاء الحظّ أنْ أقفلته بالمفتاح ودفنته تحت شجرة. وبسبب ذلك، فقدت الذاكرة. هنا، وبفضل ضحكتك، استعدتها، وعادت إليّ ذكرياتي. وأنا أقدّمها لك كي تخلطها بذكرياتك.

قال ذلك ثمّ قبّله بشفاه مرتعشة. وقبل أن تسنح الفرصة للصبيّ كي يردّ التحية، رحل مايكل أنجلو.

كان قد كتب على الورقة:

من حفرة صنعها البحر في الرمال
أخرج الطفل قوقعة بيديه الناعمتين
قرّبها من أذنه.
أراد أن يمسك الموج
ويجني زبد العطر.

***

وحين قادته خطواته
إلى قلب الجبل
فاجأه الصدى
مقهقهًا
أهداه نشيد العطر
وضحكة النرجس.
***
من مجثمه العالي
سقط فوق أرض طفولته
يدٌ في غاية الرقّة
حدّثته عن النكهات والحبّ
سمعها، شمّها، تذوّقها.
متى سيراها؟»
***
محمولاً على راحات الفرح
ركض الطفل مسرعاً في الطريق الحجري.
تاركاً هناك مخاوفه ولُعبه
غرق في عناق حارّ
مع ثوب محبوب رسم على خدّه
تطريزاته المزركشة.
***

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انسدل شعر المطر.
من العاصفة، وُلد أمل لا ينتهي
بعودة حبّ، خرج من النسيان
ليعيد إحياء ذاكرة الطفل
في قلب الرجل.

ألف ــ راء

علامات في الرواية العالمية
سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَويّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بذلة الغوص والفراشة

المؤلف: جون دومينيك بوبي
البلد: فرنسا
ترجمة: شوقي برنوصي

(كُتبت هذه الرواية برمش العين اليسرى)

من حيث ينتهي المُتاح، يبدأ الإبداع، والأنفس الحرّة وإن غدت جثثًا، قادرةٌ على الطيران.

درسان عميقان من رواية لم تكلّف نفسها عناء الوعظ والإرشاد، فكلّ ما فعله الكاتب أن أصرّ على الحياة، ولمثل تلك المهمّة يكفي أنف ورئة للتنفّس، وبلعوم لتلقّي الغذاء، ورمش عين يُسرى لباقي الأدوار! نعم برمش العين ذاك أبقى جون دومينيك بوبي على صلته بالعالم كاملةً مُبتكرًا طريقةً في التواصل هي الترجمة الحيّة لكلمة «إرادة» أمّا مضمون السرد فذهاب وإياب بين أمسٍ قادرٍ وحاضرٍ كسيح، وبين خارج يُرى، وداخلٍ يَرَى، ولا رابط بين فصلٍ وآخر، أو حكاية وأخرى سوى أنّ كُلاً منها قد شغلت حيّزاً من الذاكرة والوجدان، فعند الفقد لا يبقى من فرق بين التافه والمهمّ، لكلٍّ من الاشتهاء نصيب. والرواية ككلّ الأعمال الكُبرى نبش في أسئلة الماهية وثنائيّة الجوهر والعَرَض، حتى وإن توسّلت بالفكاهة القاتمة بل لعلّها ما أفلحت إلّا لذلك، أوَليست روح الكاتب الخُلّبُ هي المعادل الموضوعي للفكاهة وخفّتها الأشبه بالفراشة، وَجسدُه المأزق هو بذلة غوصه الضاغطة والقاتمة لونُها واقعاً ومجازاً؟

رمزي بن رحومة

السنة المفقودة

المؤلّف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»

صالح علماني

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»

عبد الرحيم الخصّار

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجذّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة. تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ».

زياد عبد القادر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذئب البراري

المؤلّف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

عمل سرديّ باهر من أبرز سماته الإحاطة بمرحلته الزمنيّة الحرجة والتغلغل في ما وراء الصمت، ولكنّ الأسئلة التي تطرحها الرواية ما تزال متلبّسة بالكائن الإنسانيّ الممزّق بين ذئبيته وتوحّشه وبين ما يطمح إلى بلوغه من كمال وسكينة... أسئلة تنتقل بكلّ وهجها من جيل إلى آخر، من مثقّف عاش ما بين حربين رهيبتين إلى مثقّفين يتوغّلون في القرن الواحد والعشرين زمرةً من الغرباء المهمّشين المغيّبين بشتّى الوسائل عن عصرهم ومجتمعهم....

إنّنا أمام «ذئب» هارب من وليمة دم ، تنبّأ بالحرب الرهيبة القادمة وخيّر وحشة العزلة على المشاركة في الجريمة الكبرى.

لذلك سيجد إنسان اليوم المهدّد بموجات التوحّش والتطرّف والانغلاق ومقت الآخر، صوتا يمثّل هواجسه ومخاوفه، ووجها يشبهه في غربته ووحشته، إنّ ما اعتمل في باطن «هاري هالر» من اضطرابات نفسيّة عاصفة وما عاشه من خيبات وآلام، يحدث لأغلب المحشورين اليوم في الغابات المدنيّة التي تُطلق عليها جزافا أسماء «أوطان» و«دول»، وما هي في الحقيقة غير أطر لصراع محموم بين قوى مستضعفة وقوى جائرة وشديدة الجشع ، هذا ما تفضحه الرواية وتعرّيه دون السقوط في تقريريّة فجّة أو خطاب أجوف، فقدر المبدع أن يخلق من جرحه وردة ، لا أن يعتنق الصراخ فيزيد العالم ضجيجا ...

محمّد الهادي الجزيري

زوربا اليوناني

المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

زوربا... شخصيّة ورمز... توقّف عن أن يكون وجها وقسمات ليصير علامة... علامة بكلّ مفهومها التأويليّ... إحالة تقود إلى إحالة... لتدلّ على إحالة وتتواصل السلسلة...

شخصيّة فاضت على كل حدّ وهربت من سجن الرواية على رحابته لتُصبح رمزا للمُهمّشين، للّذين يتعلّمون من الحياة، فيلسوفًا يعلّم الفيلسوف، حكمتُه خبرات المعيش ومعترك الوجود الإنساني...

رقصة زوربا انتهت دستورا للكون، رؤية تسخر من المعارف المتطاولة على الدنيا، المتعالية على الأرض، وتثور على وضع تكون فيه إمّا خادما أو مخدوما... تكسر كلّ قالب لتأتيك في كلّ لحظة بدرس جديد مُلخّصه: لا شيء يعلو على صوت الحياة الصاخب...

ظافر ناجي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

منذ الصفحات الأولى لـ«قطار الليل إلى لشبونة» يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

الفيغارو

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كان صحيحا أننا لا نعيش إلّا جزءا صغيرا مما يعتمل في داخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لا يكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ما الأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لا قطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

شوقي العنيزي

ساعي بريد نيرودا

المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لينور دي رُوكوندُو

الحجر الحيّ

حجر صلد، ونحّات خبير، فأيّهما يفعل فعله في الآخر؟ ذاك مدار الرواية إن كان لا بدّ لكلّ رواية من مدار. أمّا متنها السرديّ فأشبه بالشرفة المُشرعة ساعة الضحى، يُطلّ منها الضوء خفيفًا ويسري في الظلام على مهلٍ حتّى يُبدّده. عن ظُلمة مايكل أنجلو بوناروتي نتحدّث، أمهر نحّاتي عصر النهضة وتوأم الرخام. رجل صلب، بارد، صموت، مشدود إلى ذكريات غائمة، ولحظة راهنة تتأرجح بين الأمل والخواء، وبين هذا وذاك تمتدّ جسور وتنقطع أخرى، الأخ غويدو والشاب أندريا، توبولينو وكافالينو والطفل ميشيل والمرأة الحلم، هم تلك الجسور. فهل يتمّ العبور ويمتلئ الخواء؟ وهل تعبر الروح من الفنّان إلى الحجارة فتنهض حيّة؟

رمزي بن رحومة

مكتبة بغداد

ISBN: 978-9983-833-79-9